ألا له الخلق والأمر

مفهوم القدر والحرية عند أوائل الصوفية

إعداد
الشيخ/ محمود بن عبد الرازق

توزيع
مكتبة الإحسان
بالجمالية ــ دقهلية
ت : 731912

* كتب للمؤلف *

1- توحيـــد العبـــادة ومفهـــوم الإيمـان - الطبعـــة الأولـى نفـــدت ـــ مطبعـة التقدم - المنيرة - القاهرة .
2- تـــوحيد الصـفات بيـن اعتقـاد السـلف وتأويلات الخلـف - الطبعـة الثانيـة دار نور الإسلام للنشر والتوزيـع - المنصـورة .
3- القــواعد السلفية فى الصـفات الربانيـة - الطبعــة الثانيــة مطبعــة دار الوفــاء - المنصورة .
4- محنة الإمـام فـى صـفة الكلام - الطبعـة الأولى - توزيـع مكتبـة الإحسـان بالجماليـة دقهلية .
5- مفهوم القدر والحرية عند أوائل الصـوفية - الطبعة الأولـى توزيـع مكتبـة الإحسـان بالجمالية دقهلية .

رقم الإيــداع بدار الكتب 8814 / 1995

الترقيم الدولى I . S . B . N /
977 - 272 - 794 - 5

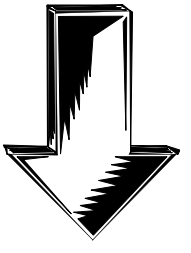

الطبعة الأولى
سنة 1995م / 1416هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

توزيع
مكتبة الإحسان
بالجمالية ــ دقهلية
ت : 731912

المقـــدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونعـوذ بـالله مـن شـرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهـده اللـه فلا مضل له ومن يضلل فلا هـادى لـه ، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك لـه وأشـهد أن محمدا عبـده ورسـوله سـيد المرسـلين وخـاتم النـبيين صـلى اللـه عليـه وعلـى آلـه وصـحبه أجمعين .

وبعد ... فإنه من رحمة الله سبحانه وتعالى وعظيـــم لطفـــه بخلقـــه أن جعـــل الرســـالة الإسلامية خاتمة الرسالات السـماوية ، وجعلهـا سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيـغ عنهـا إلا هالك قال تعالى :

{ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينـا } (1) .

وكتب ـ تبارك اسمه وتعالى جده ـ السعادة فى الدارين لأتباع هذه الرسـالة الـذين قـدروها حق قدرها وقاموا بهـا علـى وفـق مـا أراد اللـه وعلى هدى نبى اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ، فكان منهم خير القرون ومن جاء بعـدهم ممـن زكاهم رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم فـى

قـوله : **(خيـر النـاس قرنـى ثـــم الـذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .**
قـال عمـران بن حصين راوى الحـديث : (فلا أدرى أذكـر بعـــد قرنــه قرنيــن أو ثلاثة) (1) .

1- المائدة / 3 .

وبعد خير القرون كانت الفترة الزمنية التى لفتت أنظار الباحثين بما حوته من متغيرات فى الفكر الإسلامى وتأصيل للمناهج المختلفة لدى الطوائف الإسلامية حيث تشابكت فيها الأفكـار وتعددت الطوائف وبدأت الشوائب تتسرب إلى النبع الإسلامى .

فقام كل باحث يأخذ شريحة من هذه الفترة يفحصها ويرد الأمور إلى نصـابها ويقـرر النتائـج عنها ، ومما ميـز الله به هـذا الدين أن جعلـه محفوظا على الدوام منهجا ثابتا لا يتغير وواقعـا مرئيا تقام به الحجة على العبـاد ، فقـال تعـالى فى حفظ منهجه :

{ إنـــا نـحـــن نزلنا الذكر وإنا له لحـــافظـــون } (2) .

وقال صلى الله عليه وسلم فـى وجـوده واقعـا مستمرا إلى قيام الساعة :

1- أخرجه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن صحب النبى أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه حديث رقم (4650) وأخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة ، باب فصل الصحابة ثم الذين يلونهم حديث رقم (2535) وأخرجه أبو داود فى كتاب السنة ، باب فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث رقم (4657) والترمذى فى كتاب الفتن ، باب ماجاء فى القرن الثالث حديث رقم (2222) .

2- الحجر / 9 .

(إنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى وأنا خاتم النبيين لانبى بعدى ، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى) وفى رواية : (لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك) (1) .

وقد جعل الله الاختلاف مقدرا فى سننه الكونية ومحلا للابتلاء بين العباد فقال تعالى : **{ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم }** (2) .

وعلى الرغم من ذلك نهانا عنه وحذرنا منه وأمرنا بالاعتصام بمنهجه المتمثل فى كتابه

وسنة نـبيه صـلى اللـه عليـه وسـلم فقـال جـل ذكره :

{ واعتصـموا بحبـــل اللــه جميعــا ولا تفـــرقــوا } (3) **.**

وقال أيضا : **{ فليحذر الذين يخالفون عن أمـــــره أن تصـــــيبهم فتنـــــة أو يصيبهم عذاب أليم }** (1) .

1- أخرجه مسلم فى كتـاب الإمـارة ، بـاب قـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم : **(لا تزال طائفـــة مــن أمـتى ظاهرين على الحـــق)** حـديث رقـم (1924) وأبـو داود فى كتاب الفتن ، باب ذكـر الفتن ودلائلهـا برقـم (4252) وابن ماجه فى كتاب الفتن ، باب ما يكون مــن الفتن برقم (3952) وأخرجه أحمـد فـى المسـند حـ 5 ص 278 وأخرجـه الحاكم فـى المسـتدرك وصـححه حـ 4 ص 456 ، ص 457 .

2- هود / 118 : 119 .

3- آل عمرا ن / 103 .

فمن جانب السنن الكونيـة حـدث الاختلاف بين الأمة ، وم ن جـانب التكليـف والعلـم كلفنـا الله سبحانه وتعالى بأخـذ الأسـباب فـى خدمـة الكتاب والسنة .

وقد حاولت فى هذه البحث الذى تقدمت به لنيل درجـة الماجسـتير أن أبيـن موقـف أوائـل الصوفية من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومدى تـأثيرهم وإسـهامهم سـلبا أو

إيجـابا فـى الحفـاظ علـى العقيـدة الإسـلامية ، وذلك من خلال مفهومهم للقضاء والقدر ومدى حريـة الإنسـان ومسـئوليته عـن أفعـاله ، كمـا حاولت من خلال البحث إظهار المخالفات التى وقعوا فيها والـتى نتجـت عنهـا سـلبيات الواقـع الصوفى المنتشرة فـى البلاد الإسـلامية قـديما وحديثا .

* أهمية الموضوع :

مـن المؤسـف أن الواقـع الصـوفى فـى الماضى والحاضر قـد اختلـط بالشـطح والبـدع والخرافـات ودعـاء الأمـوات وتشـييد الأضـرحة والعكوف علـى قبـور الصـالحين وشـد الرحـال إليهم ، وانتشار الطرق الصوفية بشكل يجـر إلـى البدعـة ويخـرج عـن معنـى الـترابط والوحدة فى متابعة النبى صلى الله عليه وسلم .

1- النور / 63 .

وقد ظهرت أمور غريبـة لا تتفـق وروح الإسـلام امتـدت قرونـا طويلـة تحـت شـعار التصـوف وانصبت فى أرض الواقع ، فازدادت المخالفات باسم التصوف ووقف النـاس مـواقف متعـدده بين منكر ومتحامل بالحق أو الباطل ، كل ذلـك والعيـون ترقب الأمـة الإسـلامية وتـتربص بهـا من الداخل والخارج بغيـة فـى تشـويه فكـرها

وتشتيت شملها ومن ثم كانت أهمية الموضـوع ممثلة فى الجوانب الآتية :

1- الوقـوف علـى الحقـائق الفكريـة لمنهـج الصوفية فى الفترة التى تلت خيـر القـرون إذ أنها تمثل منعطفا خطيرا فى تاريخ الأمـة الإسلامية .

2- واقعية الموضوع وأثره فـى تصـحيح الحيـاة الصوفية المعاصرة من خلال تقـديم دراسـة علميـة نزيهـة للمؤيـدين أو المعارضـين للتصوف بغية التجرد للوصول إلى الحقيقـة .

3- الوقـوف علـى مكانـة الأوائـل وسـلوكهم ومنهجهم فى الحياة بذكر مالهم وما عليهـم ليتأسى الناس بالفضيلة والأخلاق الحميدة .

4- العمـل علـى كشـف الشخصـيات الصـوفية الـتى أسـهمت فـى إثـراء الفكـر الصـوفى بصفة خاصة والفكر الإسلامى بصورة عامـة .

5- تقـديم رؤيـة إسـلامية صـحيحة وواضـحة لأخطر القضايا الفكرية وهى قضـية القضـاء والقـدر وعلاقتهـا بأفعـال العبـاد مـن خلال معالجة الصوفية الأوائل لها .

6- إخراج المعانى الصوفية التى تخدم الإسـلام وخاصة مفهوم الحرية بالمنظور الذى يعالج ويصحح مفهوم الحرية عند الشباب المسلم

فى العصر الحاضر ، فالحرية عندهم ترتبط بالعبودية إرتباطا وثيقا لا ينفصل .

7- كشف المعانى الدخيلة على التراث الإسلامى فى الفترة التى تلت خير القرون ، والوقوف على مدخل القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود وغير ذلك من المعانى التى قبحها مشايخ الصوفية .

8- العمل فى سبيل الفهم الصحيح الذى يدعو إلى وحدة الصف المسلم ونبذ المغالاة ورد الشباب المسلم إلى طريق الاعتدال من خلال نظرة الأوائل للحياة وفهم الغاية منها .

* منهج البحث :

يلتزم هذا البحث منهجا تبدو معالمه فيما يلى :

[1- استقراء تراث الصوفية فى الفترة الزمنية التى تلت عصر خير القرون وهى على وجه التقريب من بداية القرن الثالث الهجرى إلى نهاية القرن الرابع ، ثم التحليل والوصف فى عرض القضايا التى تتصل بموضوع الدراسة والبحث تحليلا يشمل التركيز على محتوى النصوص التى ثبتت عنهم ليكون الحكم حكما سليما معبرا بحق
عن رأى الصوفية .

[2- الاعتماد على الشخصيات الصوفية البارزة التى تركت بصمات واضحة فى مجال التصوف سواء بالدعوة أو الكتابة والتصنيف وتقرير القضايا المعينة مع الاستشهاد بأقوال الآخرين كلما أمكن .

[3- اعتبار الصوفى الـ ذى أدرك جزءا مناسبا من القرنين الهجرين الثالث والرابع شخصية مؤثرة فى البحث يمكن الاستعانة برأيه وبما أدلى به فى إتمام الموضوع .

[4- إخراج المادة العلمية فى كل مبحث فى أفكار محددة جامعة للموقف الصوفى مع الاستعانة ببعض الأشكال والرسومات البيانية التى تجسد الفكرة وتقرب المراد إلى القارئ .

[5- الرجوع المستمر إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والتعليقات السلفية لمقارنة الرأى الصوفى بالمنهج الإسلامى الصافى ومدى قربه أو بعده منه .

[6- البعد عن التهويل والتهوين والإفراط والتفريط فى عرض القضايا والاقتصار على التجرد فى طرح الحقائق الموصولة للحكم وبسط المقدمات الموصولة للنتائج مع الترجمة المختصرة والمركزة لكل شخصية صوفية عند الموضع المناسب وتخريج الآيات والأحاديث على منهج أهل الحديث .

* **خطة البحث :** وقد جاء البحث مرتبا على هـذا النحو :

*** المقدمة وقد اشتملت على مايأتى :**

*** سبب اختيار البحث 0 ***

أهـميـــة الموضـوع 0

*** منهـــج الـبحـــث 0**

*** خطـــة الـبحـــث 0**

*** البـاب الأول : دراسـة تمهيديـة فـى واقـع الصوفية ومفهوم القدر والحرية 0**

ويشتمل على فصلين :

*** الفصل الأول : واقع التصوف والصوفية فـى القرنين الثالث والرابع الهجريين 0**

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

ا ـــ المبحـــث الأول : التصـــوف نسبتـــه ومعنـاه 0

ب ـــ المبحـث الثـانى : دراسـة العوامـل الـتى أسهمت فى ظهور التصوف 0

جـ ـ المبحـث الثـالث : موضـــــوع التصـوف وأهـم قضاياه 0

*** الفصل الثانى : دراسة فى مفهـوم القـدر و الحرية وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :**

ا ـ المبحـــث الأول : الحرية لغة وشرعا 0

ب ـ المبحث الثانى : الحرية فـى تاريـخ الفكـر الإسلامى 0

جـ ـــ المبحـث الثـالث : الحريـة ومنهـج الحيـاة الإسلامية 0

البـــاب الثـــانى : الحريـــة مـــن الجـــانب الاعتقـــادى

مفهوم القضاء والقدر وعلاقته بالحرية عند أوائل الصوفية

ويشتمل على فصلين :

*** الفصل الأول : موقـف أوائـل الصـوفية مـن صفـات الله وعلاقته بموضوع القدر والحرية**

وقد اشتمل على أربعة مباحث :

ا ـ المبحث الأول : منهج أوائـل الصـوفية فـى فهـم المسـائل الاعتقـادية 0

ب ـ المبحث الثـانى : موقـف أوائـل الصـوفية من صفات الذات وصفات الفعل 0

جـ ـ المبحـث الثـالث : إفـراد اللـه بالفاعليـة أساس العقيـدة عند أوائل الصوفية 0

د ـ المبحث الرابع : مـراتب الإيمـان بالقـدر عنـد أوائل الصـوفية 0

*** الفصل الثانى : الحرية وأصالتها فـى الـذات الإنسانية عند أوائل الصوفية 0**

وقد اشتمل على خمسة مباحث :

ا ـ المبحث الأول : مفهـوم الـذات الإنسـانية عنـدأوائل الصـوفيـة 0

ب ـ المبحـث الثـانى : الإرادة الحـرة وأصـالتها فى الذات الإنسانية 0

جـ ـ المبحـث الثـالث : دوافـع الإرادة وبواعثهـا عنـد أوائل الصوفيـة 0

د ـ المبحث الرابع : موضـوع الاختيـار البشـرى ومجاله عند أوائل الصوفية 0

و ـ المبحث الخـامس : العلاقـة بيـن المشـيئة الإلهية والإرادة الإنسانيـة 0

*** البـاب الثـالث : الحريـة مـن الجـانب العملـى السلوكى**

وقد اشتمل على فصلين :

*** الفصـــل الأول : الاســـتطاعة البشـــرية والفاعليـة الإلهيـة وقـد اشـتمل علـى أربعـة مباحث :**

ا ـ المبحـث الأول : الاسـتطاعة مـن مقومـات الحرية عندأوائل الصوفية 0

ب ـــ المبحـث الثـانى : الاسـتطاعة وعلاقتهـا بالعلل والأسباب 0

جـ ـــ المبحـث الثـالث : العلاقـة بيـن الفاعليـة الإلهية والفاعلية الانسانية 0

د ـ المبحث الرابـع : العلـة مـن خلـق الأواسـط والأسباب عند أوائل الصوفية 0

*** الفصـــل الثـــانى : الحـــرية ومنهـــج العبـــودية وقد اشتمل على أربعة مباحث :**

ا ـ المبحث الأول : العقل والعلم من مقومـات الحرية 0

ب ـ المبحث الثـانى : الحـــرية فـى الاصـطلاح الصوفى 0

جـ ـــ المبحـث الثـالث : المقامـات الصـوفية وإرادة الحرية 0

د ـ المبحث الرابـع : الأحـوال الصـوفية وثمـرة الحرية 0

*** الخاتمة : وقد اشتملت على ما يأتى :**

ا ـ أهم نتائج البحث 0 ب ـ التوصيات التى تتصل بموضوع الرسالة 0

* وختـامـــا ... أسأل الله أن يجعـــل عملـى خالصا لوجهه صائبا وفق كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وكتبه الشيخ / محمود بن عبد الرازق بن على

غرة ربيع الأول من عام 1416 هـ

الباب الأول
دراسة فى مفهوم الحرية وواقع الصوفية

ويشتمل على فصلين

الفصل الأول
واقع التصوف والصوفية فى القرنين الهجريين الثالث والرابع

الفصل الثانى
دراسة فى مفهوم الحرية

الفصل الأول
واقع التصوف والصوفية فى القرنين

الهجريين الثالث والرابع

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :

التـصـــــــوف نسبتـــــــه ومعنـــاه

المبحث الثـانى :

دراسة العوامل التى أسهمت فى ظهـــور التصوف والصوفية

المبحث الثالث :

موضوع التصوف وأهم قضاياه

*** المبحث الأول ***

التصوف نسبته ومعناه

من الطبيعى أن نلجأ إلى اللغة محاولين معرفة معنى هذه اللفظة ونسبة اشتقاقها فقـد **قيل :**

إن التصوف نسبة إلى الصوف ، وذلك لأنـه لباس خشن بعيد عن النعومة والليونة وقد كـان يلبسه الأنبياء والصالحون وهـو لبـاس الصـوفية

ومرتبط بالزهد فى أذهانم ، فتصـوف إذا لبـس الصوف (1) .

وفى هذا يذكر السهروردى البغدادى فـى عوارف المعارف أن اختيـارهم للبـس الصـوف كان لتركهم زينة الدنيا وقناعتهم بسـد الجوعـة وستر العورة واستغراقهم فى أمر الآخرة وهذا الاختيار ملائم ومناسب من حيث الاشتقاق لأنـه يقـال : تصـوف إذا لبـس الصـوف كمـا يقـال : تقمص إذا لبس القميص .

ولأن ذلك أبين فى الإشارة إليهم وأدعى إلى حصر وصفهم إذ لبس الصوف كـان غـالبا علـى الأنبياء والمتقدمين من سلفهم فحالهـم حـال المقربين (2) .

1- انظر قضية التصوف المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمـود ص 31 طبعـة دار المعـارف ، االقـاهرة سنة 1985 بتصرف .

2- عوارف المعارف للسـهروردى تحقيـق الـدكتور عبـد الحليم محمود والدكتور محمود بـن الشـريف حـ 1 ص 211 طبعة دار الكتب الحديثة القاهرة سنة 1971.

وهذه النسبة رجحها كثير من العلماء وهى صـحيحة مـن حيـث اللغـة وإن كـان القـوم لـم يختصوا بلبس الصوف وحدهم بـل كـان يلبسـه غيرهم يقول ابـن خلـدون : **(والأظهــر إن قيـل بالاشتقـاق أنه مـن الصـوف وهـم فى الغالب مختصون بليسه لمــا كانــوا**

عليه مـــن مخالفـــة النـــاس فـى لبـس فاخـــر الثياب إلى لبس الصوف) (1) .

وقيل : إنه نسـبة إلـى أهـل الصـفة وهـم جماعة من فقراء المهـاجرين الـذين كـانوا فـى عهد رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم وذلـك لمشاكلتهم الصوفية فى حالهم فهم الذين نـزل فيهـم قـوله تعـالى : **{ واصـبر نفسـك مـع الـذين يـدعون ربهـم بالغـداة والعشـى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريـد زينة الحياة الدنيا }** (2) .

وهذه الأوصاف قائمة بالاثنين إذ أن أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم كـانوا فقـراء مهـاجرين فـى سـبيل اللـه عـاكفين علـى الزهـد والعبـادة والتقشف والنسك ، فلما كانت طائفة الصوفية متلبسين بأوصـاف أهـل الصـفة نسـبوا إليهـم ، وقـد انتقـد القشـيرى وغيـره هـذه النسـبة لمخالفتها مقتضى اللغة (3) .

1- مقدمة ابن خلدون تحقيق د/ على عبد الواحد وافـى ، لجنة البيان العربى الطبعة الأولى سنة1960م ، حـ 3 ص 1062 . 2- الكهف / 52 .

3- انظـر السـابق حـ3 ص 1074 ، وانظـر عـوارف المعارف حـ 1 ص 212 والرسـالة القشـيرية حـ2 ص 555 ، اللمع لأبى نصر السراج الطوسى ص 41 .

وقيل : إنما سموا صوفية لأنهم بين يدى الله تعالى فى الصف الأول وذلك لارتفاع هممهم وتعلقهم به وإقبال أسرارهم وقلوبهم عليه ووقوفهم بكليتهم بين يديه تعالى وذلك لأنهم لم تمتلكهم الدنيا حتى وإن ملكوها ، فلا يفوتهم فضل الصف الأول (1) .

وقيل : إنه نسبة لبنى صوفة قبيلة من العرب لها صلة وثيقة بالبيت الحرام فلهذه الرابطة التى تتم بين القوم وبين بيوت الله تعالى نسب الصوفية إلى بنى صوفه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وهذا إن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف ، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك ، ولو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وتابيعهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفية لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة فى الجاهلية ولا وجود

1- انظر عوارف المعارف حـ 1 ص 218 وأصول الملامتية وغلطات الصوفية مقدمة التحقيق للدكتور عبد الفتاح أحمد الفاوى ص 23 طبعة مطبعة الإرشاد القاهرة سنة 1405 هـ 1985 م وانظر قضية التصوف المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود ص 31 .

لها فى الإسلام (1) .

وكثير من الصوفية أنفسهم نسبوا التصوف إلـى الصـفاء لآن مجاهـداتهم ورياضـاتهم إنمـا تنشد الصفاء فهم من أجل ذلك صوفية .

قال بشر بن الحارث : **الصـوفى مـن صـفا لله قلبه** (2) .

وسئل سهل التسترى من الصوفى ؟

فقـال : **من صـفا مـن الكـدر وامتلأ مـن الفكـر وانقطـع إلـى اللـه مـن البشـر واستوى عنده الذهب والمدر** (3) .

وقال بعضهم (4) :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفـوا : جهـلا وظنـوه مأخـوذا مـن الصـوف ولسـت أنحـل هذا الإسـم غيـر فـتى : صافى فصـوفى حتى سمى الصوفى

فهم يحاولون أن يصـفوا أنفسـهم بمرتبـة إيمانية لا تضاهى كما جاء فى أوصاف السابقين الذين قال فيهـم رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم :

1- الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 11 .
2- انظر تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهايـة القرن الثانى للدكتور عبد الرحمـن بـدوى ص 123 ومـا بعدها طبعة وكالة المطبوعات الكويت سنة 1975 م .
3- عوارف المعارف حـ 1ص 207 .

4- الدر الثمين والمورد المعين للشخ محمـد بـن محمـد المالكى حـ 2 ص 169 طبعة مصـطفى البـابى الحلـبى القاهرة سنة 1373 هـ 1960 م .

(يدخل مـن أمتى سبعون ألفا بغيـر حساب ثم وصفهم وقـال : هم الـذين لا يرقــون ولا يســترقون ولا يكــوون ولا يكتون وعلى ربهم يتوكلون) (1) .

وأيا كان قولهم إلا أن واقع الصوفية يختلف كثيرا مع دعوتهم وحالهم ، ولكن ما نرجحه فـى نسبة التصوف هو ما ذكـره شـيخ الإسـلام ابـن تيمية حيث قال :

(هؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظـاهرة وهى لباس الصوف فقيـل فـى أحـدهم صوفى وليـس طريقهـم مقيـدا بلبـاس الصوف ولا هـم أوجبـوا ذلـك ولا علقـوا الأمر به لكن أضيفوا إليـه لكـونه ظـاهر الحال) (2) .

أما سبب ظهور التصوف وارتبـاط لفـظ التصوف بهم فهذا مبين فى المبحث الآتى .

1- أخرجـه البخـارى فـى كتـاب الطـب برقـم (5270) ومسلم فى كتاب البر الصلة برقـم (2586) والترمـذى فى كتاب صفة القيامة برقم (2446) .

2- الصوفية والفقراء ص 30 .

*** المبحث الثـانى ***

دراسة العوامل التى أسهمت فى ظهـــور التصوف والصوفيــة

اختلف الناس فى تاريخ نشـأة الصـوفية فمنهم من يذكر أن هذا الإسم لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم و إنمـا كـان فى زمن التابعين .

وينقل السهروردى عن الحسن البصرى أنه قـــال : **رأيـــت صـــوفيا فـــى الطـــواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقـال : معـى أربعة دوانيق يكفينى ما معى .**

وقيل :لم يعرف هذا الإسم قبل المائتين من الهجرة العربية (1) .

ويـذكر أبـو نصـر عبـد اللـه بـن علـى السـراج الطوسى المتوفى سنة 378هـ أن هـذا الإسـم معروف من قبل ذلك بل يذهب إلـى أنـه لفـظ جاهلى عرفته العرب قبل ظهور الإسلام (2) .

وأيا كـان الخلاف فـى تاريـخ النشـأة إلا أن التصوف لم يظهر فى عهد الصـحابة والتـابعين بالصورة المتميزة والمستقرة بعد القرن الثانى الهجرى

1- عوارف المعارف حـ 1 ص 208 .

2- اللمع لأبى نصـر السـراج الطوسـى تحقيـق د. عبـد الحليم محمود ، طه عبد البـاقى سـرور الطبعـة الأولـى سنة 1960 دار الكتب الحديثة بمصر ص 41 .

غير أن المقدمات التى أسهمت فى ظهوره واستقراره كانت مثار جدل واختلاف بين الباحثين ، ويمكن القول بأن الأمور الأساسية التى أسهمت بشكل فعال فى إظهار التصوف وإبرازه فى هيكل مميز يعرف به عن سائر الطوائف تتمثل فى الأمور الآتية :

الأمر الأول :

هو رد الفعل الطبيعى لحياة الترف التى تأثر بها المسلمون بعد عهد الخلفاء الراشدين من جهة ، والفتن والمنازعات السياسية المتكررة من جهة أخرى ، فبعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه بدأ عصر مشحون بالصراعات والفتن الداخلية أسفرت عن موقعة الجمل ثم صفين ثم مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه وتولى بنى أمية للخلافة ثم كانت سلسلة الفتن والصراعات بين الأمويين ومعارضيهم من الشيعة وأبناء على ثم مقتل الحسين بكربلاء والأحداث التى لابست خروجه لمقابلة بن زياد وقتاله .

كل هذه الأحداث أوجدت فى نفوس المسلمين نوعا من رد الفعل الذى كان نتيجته عزوف بعضهم عن المشاركة فى مجريات أمور الدولة واعتزال المجتمع تصونا عما فيه من الفتن وطلبا للسلامة ، فقوى اتجاه الزهد وظهر بكثرة فى الكوفة والبصرة (1) .

1- انظر العواصم والقواصم لابن العربى ص 80 : 86 بتصرف .

هذا فضلا عن أن دولة بنى العباس تغلغلت فيها روح الترف والبذخ فى كثير من بيوت الأمراء وغيرهم ، مما أتاح للإكثار من المتعة والإغداق فى الملذات وإشباع الفضول الفكرى والأدبى من الحضارات الأخرى المستجلبة من تراث الأمم الغابرة (1) حتى ظهرت المعتزلة بما خلفته من جراح وأفكار عصفت بالأمة الإسلامية وقتها ، ومن وقف على طبقات المعتزلة علم قدر ما كانوا عليه من العدد والمكانة المرموقة بين الخلفاء العباسيين (2) .

ومن ثم كان التصوف بخصائصه الأخلاقية عاملا من عوامل الجذب فى الاتجاه المضاد للصورة السابقة .

غير أنه فى القرنين الثالث والرابع الهجريين لم يكن مقصورا على البصرة والكوفة كما كان شأن الزهاد والعباد فى القرنين الأوليين ، وإنما تجاوز إلى أغلب بلاد الممالك الإسلامية كفارس والشام وجزيرة العرب فقد انتشرت الصوفية فى هذه الأنحاء من العالم الإسلامى ، وكان لهم

1- انظر من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة للدكتور محمد السيد الجليند ص19 : 23 بتصرف .
2 - طبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار ص 132، وفيات الأعيان لابن خلكان حـ1 ص 67 وما بعدها ، وتاريخ الطبرى حـ 8 ص 290 وما بعدها ، موقف الصوفية من العقل حتى نهاية القرن الرابع للدكتور محمد عبد الله الشرقاوى ص 22 .

مشايخ وطوائف وطرق ينتسب إليها المريدون فى مختلف البلاد ، غير أن مذهبهم لم يصب من النمو والازدهار فى أى من البلاد ما أصاب بغداد التى كان ينمو فيها سريعا وحظه من الصبغة العلمية عظيما (1) .

الأمر الثانى :

السمة الظاهرة للمجتمع الإسلامى فى عصر النبوة وما بعده فقد كان الصوف منتشرا فى لباس المسلمين فى عصر الصحابة والتابعين وكان مرتبطا على الأغلب بالفقر وقلة اليد وقد دلت على ذلك مجموعة من الأحاديث النبوية منها :

ا ـــ حديث جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه إذ قال : جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم الصوف فرأى سوء حالهم وقد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فأبطؤا عنه حتى

رؤى ذلك فى وجهة صلى الله عليه وسلم .. إلى آخر الحديث (2) .

1- الحياة الروحية فى الاسلام للدكتور مصطفى حلمى ص 124 بتصرف طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1984 .

2- أخرجه مسلم فى كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة وأنواعها وأنها حجاب من النار برقم (70) وفى كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن برقم (1017) .

ب ـ حديث أبى بردة بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : قال أبى : لوشهِدتنا ونحن مع نبينا صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء حسبت أن ريحنا ريح الضأن إنما لباسنا الصوف (1) .

جـ ـ حديث نافع بن عقبة رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ، فأتى النبى قوم من المغرب عليهم ثياب الصوف فوافقوه عند أكمة فإنهم لقيام ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد (2) .

فهذه الأحاديث تدل على أن لبس الصوف فى عهده صلى الله عليه وسلم ارتبط غالبا بالفقر والعجز والضيق ولم يكن يوجد أو يتيسر

لكل واحد منهم القطن أو غيره ، وهذا المعنى لاحظه الصوفية بعد زمنه صلى الله عليه وسلم ، فنسبوا أنفسهم إليه بغية التواضع فى الخلق والتعبد والزهد والبعد عن ملذات الدنيا وأصبح لبس الصوف مشتهرا بين الصوفية ومميزا لهم ، وقد ساد ذلك بين الناس إلى درجة أن الإمام مالك رحمه الله يعتبره مظهرا للشهرة بالزهد .

1- أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ، باب التواضع فى اللباس برقم (2801) وأبو داود كتاب اللباس ، باب فى لبس الصوف والشعر رقم (4032) والترمذى كتاب صفة القيامة ، باب لبس الصوف برقم (3562) وأحمد حـ 4 ص 419 .

2- أخرجه مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم (2900) وأحمد فى المسند حـ 2 ص 338 .

قال ابن بطال : كره مالك لبس الصوف لمن يجد غيره لما فيه من الشهرة بالزهد لأن إخفاء العمل أولى ، ولم ينحصر التواضع في لبسه بل فى القطن وغيره مما هو دون ذلك (1) .

وهذه النسبة يؤيدها السراج الطوسى فى قوله : فكذلك الصوفية عندى نسبوا إلى ظاهر اللباس ، ولم ينسوا إلي نوع من أنواع العلوم والأحوال التى بها مترسمون ، لأن لبس

الصــوف كــان دأب الأنبيــاء عليهــم الســلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين (2) .

الأمر الثالث :

الذى ساعد فى إتمام البناء الصوفى فى القرنين الهجريين الثالث والرابع هو الطابع المميز للذات الصوفية ويتجلى ذلك فيما يأتى :

ا ـــ وجود مظاهر جديدة للزهد ولم تكن موجودة فى عصر الصحابة والتابعين إذ ظهرت جماعة من المسلمين لهم نمط معين من الحياة اليومية خاصة فى الكوفة والبصرة يتميزون بها عن عامة المسلمين وربما بدأت هذه الظاهرة فى أواخر القرن الأول الهجرى (3) .

1- انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ 1 ص 269 ، وانظر الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 21 ، 31 .

2- اللمع ص 40 .

3- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة ص 31 .

فهذا إبراهيم بن أدهم (1) الذى كان سليل الملوك يترك بلده وأهله ويقيم فى غار بنيسابور تسع سنوات كاملة من عمره بعيدا عن الناس ويهيم فى الصحراء أربعة عشر عاما ، وهذا السلوك لا يوافق سنة النبى صلى الله عليه وسلم فى زهده وتحرره من قيود

الحياه ، بل هو ابتداع ومظهر جديد لم يكن بين الصحابة رضوان الله عليهم .

وهذا بشرا الحافى (2) يلقب بالحافى لأنه ذهب يوما إلى الإسكاف

1- انظر ترجمته فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصفهانى حـ 7 ص367 مطبعة السعادة ، القاهرة سنة 1351 هـ ، الطبقات الكبرى للشعرانى حـ 1 ص81 طبعة بولاق سنة 1914 م وانظر الرسالة القشيرية لأبى القاسم القشيرى تحقيق الدكتورعبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف حـ 1 ص54 ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ليوسف الدمشقى حـ 1 ص 349 طبعة دار الكتب المصرية التاريخ الكبير للبخارى حـ 1 ص 200 طبعة حيدر أباد ، فوات الوفيات للكتبى حـ1 ص3 طبعة بولاق ، تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار حـ 1 ص 44 .

2- انظر ترجمته فى حلية الأولياء حـ 8 ص 336 وما بعدها ، وفيات الأعيان حـ1 ص112 صفة الصفوة لابن الجوزى حـ2 ص183 ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى حـ2 ص60 طبعة مكتبه القدس بالقاهرة سنة 1350 هـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى حـ 7 ص 67 مطبعة السعادة القاهرة سنة 1349هـ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى حـ7 ص244 طبعة دار الكتب المصرية ، البداية والنهاية لابن كثير حـ 10 ص 297 المطبعة السلفية سنة 1351 هـ .

ليصلح حذاءه فأغلظ الإسكاف القول له فقذف بشر بنعليه وأقسم ألا ينتعل طول حياته كى لا يحتاج إلى مخلوق .

وكان الأولى به أن يذهب إلى غيره أو يتولى إصلاح الحـذاء بنفسـه ولا يخـالف السـنة بـترك الانتعال طول الحياة .

كما نجد ما هو أسوأ من ذلك لأبى الحسين النورى حيث يصعد قنطرة ويرمى ثلاثمائة دينار فى الماء واحدا واحدا ثمـن عقـار بيـع لـه وهـو يقـول : **(حبيـبى تريـد أن تخـدعنى منـك بمثل هذا)** (1) .

ونلتقى أيضا بين صوفية القرن الثالث بمن يحرم على نفسه أكل ما أباح الله مـن الطعـام حتى إنه ليقول لمريد مـن مريـديه قـد مـد يـده إلـى قشـر البطيـخ : **(أنـت لا يصـلح لـك التصوف الزم السوق)** (2) .

وغير ذلك من الأقوال والأفعال التى تدعو إلى إعجاب العامة والدهماء فى مقابل جهلهـم بالسـنة ، ممـا سـاعد علـى شـد النـاس فـى

1- اللمع ص492 ، صفة الصفوه حـ2 ص294 ، حلية الأولياء حـ10 ص250 تاريخ بغداد حـ5 ص130 ، سير أعلام النبلاء حـ 9 ص156 .

2- هو أبو تراب النخشبى واسمـه عسكـر بـن حصـين من مشايخ خرسـان تـوفى فـى البادية ، وقيـل نهشـته السباع سنة 245 هـ ، انظـر الرسـالة القشـيرية حـ2 ص84 حليـة الأولياء حـ10 ص45 ، طبقات الشافعية لتقى الدين السبكى حـ2 ص55 المطبعة الحسينيـة

، القاهـرة سنة 1324 هـ ، طبقـات الشعـرانى حـ1 ص96 شـذرات الذهـب حـ2 ص 108 .
التأسـى بهـا رغبـة فـى التميـز ، حـتى عـرف الصوفية بذلك بين العامة وأصبح مظهرا مألوفا عند الناس .
ومما يدل على ذلك أيضا ما ذكره رويم بـن أحمـد البغـدادى حيـث عطـش عطشـا شـديدا فاستسـقى جاريـة فقـالت : ويحـك صـوفى يشرب بالنهار فاستحى منها ونذر ألا يفطر أبـدا (1) .
فما استقر فى أذهان الناس عـن الصـوفية وارتبـاطهم بـالأحوال العجيبـة فـى الزهـد دفـع رويما إلى التلبس بهذه الأوصـاف .
ب ـــــ وجـود نمـط جديـد مـن الألفـاظ والمصطلحات التى لم يؤلف استعمالها من قبل فى عهد الصحابة والتابعين أضفى على الصوفية أثرا واضـحا فـى تكـوين جمـاعتهم واستقرار منهجهم (2) .
فقـد رُوى عـن مالـك بـن دينـار والحسـن البصـرى وشـقيق البلخـى أنهـم ذهبـوا لزيـارة رابعة العدوية فى مرضها .
فقال لها الحسن : ليس بصادق فى دعواه مـن لم يصبر على ضرب مولاه
فقالت رابعة : هذا كلام يشم فيه رائحة الأنانية .

1- رويم بن أحمد البغدادى ت سنة 303 هـ انظـر فـى ترجمته الرسالة حـ1 ص 27 وانظر ترجمتـه فـى حليـة الأوليـاء حـ10 ص296 صـفة الصـفوة حـ2 ص 49 ، طبقات الشعرانى حـ1 ص603 ، المنتظـم فـى تاريـخ الأمم والملوك لابن الجوزى حـ6 ص136 ، تاريخ بغداد حـ8 ص430 ، والبداية والنهاية حـ1 ص125 .
2- من قضـايا التصـوف فـى ضـوء الكتـاب والسـنة ص 32 .

فقال شقيق : ليس بصادق فـى دعـواه من لم يشكر على ضرب مولاه
فقالت رابعة : يجب أن يكون أحسن من هذا .
فقال مالك : ليـس بصـادق فـى دعـواه من لم يتلذذ بضرب مولاه .
فقالت رابعة : يجب أن يقال أحسن من هذا .
فقالوا لها : تكلمى أنت يا رابعة .
فقالـت : ليس بصـادق فـى دعـواه مـن لـم ينس الضرب فى مشـاهدة مـــولاه (1) .

فكانت مثل هذه الإشارات والألفاظ الغريبة الجديدة التى لم تكن من قبـل سـببا فـى إثـارة الصوفية بعد ذلـك لأن يتكلمـوا بمـا هـو غـامض وأبعد فـى الوصـول إلـى المعنـى المـراد حـتى ظهـر كـم كـبير مـن المصـطلحات والألفـاظ

الجاريـة فـى كلامهـم اسـتحوزت علـى أبـواب وفصول لشرحها فى كتـب التصــوف وغيرهـا (1) .

1- السابق ص 33 وانظر تذكرة الأولياء حـ 1 ص 71 ، 72 ، نشأة التصوف فى الاسلام للدكتور قاسم غنى ص 48 .

2- انظر على سبيل المثال ماأفرده السـراج الطوسـى فى اللمع بشرح الألفاظ الجارية فى كلام الصـوفية مـن ص409 ـ 458 والأبواب الـتى أفردهـا الكلابـاذى فـى التعرف لمذهب أهل التصوف والقشـيرى فـى الرسـالة والهجويرى فى كشف المحجـوب وغيرهـم فـى شـرح هذه الكلمات الغامضة وتبسيط معناها للقارئ العادى .

ومن ثم فقد ساعد هذا النمط الجديـد فـى إبراز الصوفية بصورة متميزة عن الآخرين .

حـ ـــ أن التصـوف لـم يتعـد المرحلـة الفرديـة الــتى كــانت فــى القرنيــن الهجريــن الأول والثانى فقط وإنما تجاوز إلي شئ أخـر وهـو أن الصوفية أخذوا ينظمون أنفسهم طوائـف وطرقـا يخضـعون فيهـا لنظـم خاصـة بكـل طريقة ، وكان قوام هذه الطرق طائفـة مـن المريدين يلتفون حول شيخ مرشـد يـوجههم ويبصرهم على الوجه الـذى يحقـق لهـم مـن وجهـة نظـره كمـال العلـم وكمـال العمـل ، فانتقل التصوف مـن المرحلـة الفرديـة إلـى مرحلة العمل الجماعى المنظـم ويـذكر ابـن

تيمية أن أول من بنى دويرة للصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن البصرى ت (177هـ) .

ثم توالت بعد ذلك الطرق الصوفية المتعددة ، كل طائفة تلزم شيخا تتتلمذ على يديه (1) .

وقد صنف الهجويرى من هذه الطوائف المحاسبية والقصارية والطيفورية والجنيدية والنورية والسهلية وغيرهم (2) .

ومن ثم كانت الطرق الصوفية فى القرن الثالث الهجرى قد ذاع أمرها وكثر طالبوها ووصلت إلى درجة عالية من الاستكمال والاستقرار

1- الصوفية والفقراء ص 21 ، ميزان الاعتدال للذهبى حـ 2 ص 672 .

2- كشف المحجوب للهجويرى ص 209 وما بعدها .

كما أن التنقل المستمر للصوفية فى البلاد الإسلامية المختلفة ورحيل المريدين إليهم ساعد على إيجاد رابطة قوية بين مختلف الطرق الصوفية ولا سيما فى إحداث لغة خاصة بهم يتفاهمون بواسطتها ويعبرون بها عن أحوالهم النفسية وأهدافهم الروحية (1) .

د ـــ ومن أهم الأمور التى أثرت فى نشأة الحياة الصوفية بطابعها المتميز إنشاء التراث الصوفى ، فكما أن المؤلفات ظهرت فى مختلف العلوم وكانت سببا هاما فى

تأصيلها وتميزها كذلك كانت علـوم التصـوف فنجد الحارث المحاسبى يملأ الواقع الصوفى وقتها بمؤلفاته المتعددة وعلـى رأسـها كتـابه الرعاية ، وكذلك الحكيم الترمذى وأبا سـعيد الخراز وسهلا بن عبد الله التسترى ، ثم ظهر بعد ذلـك الكلابـاذى بكتـابه التعـرف لمـذهب أهل التصوف ، وقـوت القلـوب لأبـى طـالب المكى ، واللمع للسراج الطوسى ثم طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى .

وجـاء بعـد ذلـك القشـيرى وصـنف الرسـالة والهجـويرى الـذى ألـف كشـف المحجـوب وتتابعت حركة التأليف والتصنيف فكان للـتراث

1- التصوف فى الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه تـأليف للـدكتور عبـد اللطيـف العبـد ص 92 الطبعـة الأولـى سـنة 1986م ، دار الثقافـة العربيـة ، وانظـر الطـرق الصـوفية فـى مصـر نشـأتها ونظمهـا ص 259 طبعة سنة 1978م مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

الصوفى مكانة كبيرة بين بقية العلوم .

كل هذه الأسباب جعلت من القرنين الثالث والرابـع عصـرا بهيـا للاسـتقرار الصـوفى فـى منهجهم وطريقتهم وأحوالهم ومقامـاتهم ، وإذا كان هذان القرنان مسرحا للفوضـى السياسـية والفكرية التى عمت البلاد الإسلامية ، فإن جهد

الباحثين لا ينقطع فى كشف الغموض وتحليل الأحداث وأثرها فى بناء الأمة أو هدمها .

وقد كان للصوفية باع كبير فى الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة فى مسائل الاعتقاد وغيرها ، كما أن لهم شطحات مؤثرة فى أفكار العامة والدهماء ساعدت على انتشار البدعة والغلو فى معنى العبادة ومثلت النواه التى اجتمعت حولها كل أفكار الهدم فى التصوف الدخيل والمؤثرات الأجنبية .

ولعل البحث فى مسألة القدر والحرية يكشف عن طبيعة الصوفية وحقيقتهم فى هذه الحقبة من الزمن بما لهم وما عليهم .

*** المبحث الثالث ***

موضوع التصوف وأهم قضاياه

رغم أن أقوال المشايخ فى موضوع التصوف لا تكاد تحصى إلا أنها متقاربة المعنى وتدور فى فلك واحد ، ويذكر السهروردى البغدادى فى عوارفه أنه رغم الاختلاف فى تعريف التصوف فإن هناك قاسما مشتركا بوجوده يكون التصوف ، فالصوفى عنده هو الذى يطهر القلب من شوائب النفس على

الدوام ولا يكـون ذلـك عنـده إلا بـدوام افتقـاره إلـى مـولاه ، فبـدوام الافتقـار كلمـا تحركـت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها المرء ببصيرته النافذة وفر منهـا إلـى ربـه فهـو قـائم بربه على قلبـه وقـائم بقلبـه علـى نفسـه قـال تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا كونوا قـوامين لله شهداء بالقسط } (1) .

وهذه القوامة لله على النفس هى التحقق فـى موضوع التصوف (2) .

وأصل التصوف عندهم الاجتهاد فـى تحقيـق مقام الإحسان على وجهه الأكمل بحيث يتحقق ما قرره رسول الله صلى الله عليه وسـلم فيـه :

(أن تعبد الله كأنك تراه فـإن لـم تكـن تراه فإنه يراك) (3) .

1- المائدة / 8 . 2- عوارف المعارف حـ 1 ص 132.

3- أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، باب **{ إن الله عنـده علـم السـاعة }** برقـم (4777) ومسـلم فـى كتـاب الإيمـان رقـم (10) النسـائى فـى كتـاب الإيمـان وشرائعه برقم (4991) وأحمد فـى االمسـند حـ 2 ص 426 .

وبيان ذلك أن الصفاء عندهم موطنه القلب وهو نابع منه ولذا انصب موضوع التصوف فيه ،

بحيث يدور على الاجتهاد فى تحقيق الكمال الممكن لصلاح القلب عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : **(ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب)** (1) .

وإذا علم هذا فإنه من البديهى وعلى وجه الافتراض أن يبدأ الصوفى رحلته بأعمال الظاهر وأحكامها علما وعملا فمن لم يعمل بالظاهر فلا صلة له بالباطن ، ومن ثم فإن صدق التوجه مشروط بما يرضاه الحق سبحانه وتعالى وما لايرضاه ولا يصح مشروط بدون شرطه .

- قال رويم بن أحمد : **التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد** (2) .

1- الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه برقم (52) ومسلم فى كتاب المسقاه باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم (1598) وأبو داود فى كتاب البيوع ، باب فى اجتناب الشبهات برقم (3329) والترمذى فى كتاب البيوع ، باب ترك الشبهات (1205) والنسائى فى كتاب الأشربة برقم (5710) وابن ماجه فى كتاب الفتن ، باب الوقوف عند الشبهات (3984) وأحمد حـ 4 ص 267 .

2- اللمع ص 45 .

- وقال إمام الطائفة فى عصره الجنيد بن محمد : **(التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به)** (1) .
- وقال عمرو بن عثمان المكى : **التصوف يكون العبد فى كل وقت مشغولا بما هو أولى فى ذلك الوقت** (2) .

* أهم القضايا الصوفية :

وعن أهم القضايا التى شغلت أوائل الصوفية ودارت بينهم من خلال كتبهم ومروياتهم فيتمثل أغلبها فيما يأتى :

1- العقيدة والمنهج :

لما كان جهد الصوفية قائما على إصلاح الباطن وطهارة القلب فإن أغلب الذين كتبوا فى التصوف من الصوفية ؟ الأوائل أفردوا أبوابا وفصولا لذكر معتقدهم ومنهجهم وموقفهم من الوحى ومصدر الاعتقاد وعلاقة العقل بالنقل .

فهذا الحارث المحاسبى يجلى بوضوح معتقده فى الله وأنه فى السماء على العرش ويرد على القائلين بوحدة الوجود (3) ويبين منهجه فى التلقى والمعرفة من خلال فهم ماهية العقل (4) .

1- السابق ص45 .

2- السابق ص45 .

3- انظر كتاب فهم القرآن للحارث المحاسبى ص 367 .

4- انظر ماهية العقل للحارث المحاسبى ص 237 .

وهذا سهل بن عبد الله التسترى يذكر اعتقاده على وجه التفصيل ويرد على أهل الفرق والدعاوى فى الأحوال (1) .

ويقول الشيخ الكبير أبو عبد الله بن خفيف : (هذا معتقدى ومعتقد الأئمة السادة والعلماء القادة الذين قبلى وفى زمانى من أهل السنة والجماعة ، ثم قال : ويعتقد أن أخبار الآحاد توجب العمل ولا توجب العلم وأخبار التواتر توجب العلم والعمل ، والعقل لا يحسن ولا يقبح والشرع حاكم على العقل والناس على العدالة حتى يظهر الجرح ثم يفصل اعتقاد أهل السنة والجماعة) (2) .

ويشرح الكلاباذى قولهم فى التوحيد وموقفهم من الأسماء والصفات وقولهم فى الرؤية والقدر وخلق الأفعال ثم يبن منهجهم فى معرفة الله والأمور الغيبية بصفة عامة وأن مصدرها الوحى وأن العقل لا يمكنه بمفرده التعرف على أوصاف الخالق سبحانه وتعالى ، قال الكلاباذى فى الباب الحادى والعشرون : قولهم فى معرفة الله تعالى : أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده ، وسبيل العقل

عندهم سبيل العاقل فى حـاجته إلـى الـدليل ، لأنه محدث والمحدث ل ايدل إلا على مثله .
وقال رجل للنورى : ما الدليل على الله ؟
قال : الله .

1- انظـر كتـابه الـرد علـى أهـل الفـرق والـدعاوى فـى الأحوال .
2- سيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف ص 340 .

قال : فما العقل ؟
قال : العقـل عـاجز والعـاجز لا يـدل إلا على عاجز مثله (1) .
ويذكر المكى فـى قـوت القلـوب كتبـا وفصـولا فى بيان معتقد أهل السنة والجماعة (2) .
ومن الإنصاف أن يذكر المرء أن أقوالهم فى أمور الاعتقاد خاصـة الـتى تتعلـق بأسـماء اللـه وصفاته وأفعاله وأمـور القـدر وتوحيـد الربوبيـة حجة فى بيان منهج أهل السنة والجماعة والرد على المخالفين من الطوائف المختلفة .
وقد احتج كثير من السلف بأقوالهم ونقلوا الكثير عنهم فى مؤلفاتهم وعلـى رأسـهم شـيخ الإسلام ابن تيمية (3) .

2- أعمال القلوب والجوارح .

تعد أعمال القلوب والجوارح من القضـايا الـتى شـغلت حيـزا واسـعا فـى تـراث أوائـل

الصـوفية فلقـد بلـغ الجهـد مبلغـه فـى دراسـة أعمال القلوب ـــــــــــــــــــــــ

1- التعرف ص 78 ، ص 79 وقارن بيـن قـول النـورى هـذا فـى تقـديم النقـل وبيـن قـوله المنـاقض للشـرع **(حبيبى تريد أن تخدعنى منك بمثل هذا)** انظر ص 27 .

2- قوت القلوب حـ 1 ص 123 وما بعدها .

3- انظر ما نقله عنهم فى الفتوى الحموية ص 36 ومـا بعدها وانظر فى تفصيل ذلك كتاب ابن تيمية والتصـوف للدكتور مصطفى حلمى وكتاب التصوف فى تراث ابـن تيمية للدكتور الطبلاوى محمود سعد .

علـى وجـه الخصـوص ممثلـة فـى الأحـوال الإيمانيـة والمقامـات والنـوازع والخـواطر الداخلية التى تطرأ من قبـل النفـس والعـدو أو الروح والملك ولا يكاد يخلو كتـاب مـن كتبهـم من تفصيل ما لهذه الأمـور ، فوصـل اهتمـامهم بعبوديات القلـب إلـى حـد يفصـلون فيـه خفايـا الأمـور فـى التوبـة والـورع والزهـد والصـبر والتوكـل والرضـا والقـرب والمحبـة والخـوف والرجـاء واليقيـن والمراقبـة وغيـر ذلـك مـن أعمال القلوب ويفصـلون درجـات كـل مـوطن من هذه الأعمال ويظهرون جوانبه وأبعاده وفى المقابل ينبهون على ما يفسد القلب من الريـاء وسوء أفعال النفـس والعجـب والكـبر والغـرور والحسد والحقد وغير ذلـك ، وكـل منهـم يـدلى بدلوه من واقع إيمـانه وتجربتـه الشخصـية بمـا

يكشف هذه الأمـور ويجليهـا حـتى وصـل الأمـر ببعضهم إلـى أن يسـمى مـؤلفه المسـائل فـى أعمال القلوب والجوارح كالحـارث المحاسـبى أو قوت القلوب كأبى طالب المكى .

ويمكن القول أن نسـبه اهتمـام الصـوفية الأوائل بعبوديات القلب إلى سائر موضـوعاتهم قد حازت الصدارة إذا ما قورنت بالموضـوعات الأخرى .

فهم مـا برحـوا يوالـون القلـب بـالتنقيب والتحليل والدراسة الرعايـة والعنايـة وقـد جـاء اهتمامهم بعبوديات الجوارح حفاظا على سلامة القلـب مـن ناحيـة ، إذ أنهـم يعتبرونهـا سـاحة للمنازلـة والإقبـال علـى اللـه والإعـراض عمـن سواه ، وتحقيقا للعبودية فى ظـاهر البـدن مـن ناحية أخرى .

ويمكن القول أن أغلب الصوفية شـددوا على أنفسهم بلا هـوادة فـى هـذا الجـانب إلـى درجة الإفراط والمغالاه ومخالفة الحد النبـوى ، حتى إنهم تعاملوا مـع المسـتحبات والمنـدوبات علـى أنهـا واجبـات وفرائـض فيـذكر السـراج الطوسـى أن العامـة لهـم أن يقلـدوا علمـاءهم ويسألوا فقهاءهم ويعتمدوا علـى أقـاويلهم مـن الرخـص والسـعات والفتـوى والتـأويلات الـتى أوسع الله تعالى للخلق ، أمـا المتصـوفة وأهـل الخصـوص فلا يسـعهم التخلـف عـن اسـتعمال

الآداب ، والاهتمـام والتكلـف لأحكـام الصـلاة وأحكـام فرائضـها وسـننها وفضـائلها ونوافلهـا وآدابها ، لأنهم ليـس لهـم شغل غيـر ذلـك ، ولا ينبغى أن يهمهم أمر أكثر مـن اهتمـامهم بـأمر الصلاة (1) .

وفى الزكاة والصدقات والعمل والمكاسب والتصـرف فـى الأسـباب والصـوم والحـج والاجتماعـات والضـيافات واللبـاس والأسـفار والذكر والسـماع وجميـع آداب اللسـان حـالهم أشد وجهدهم أعظم .

3- التربية الروحية .

وأعنى بها عملية تكييف المريد وتشكيله على يد شيخه ليرقى إلى

1- اللمع ص 203 .

المراتب الصوفية ، وقد نال هـذا الجـانب حيـزا كـبيرا مـن الجهـد الصـوفى فـى البدايـة حيـث وضعوا القواعد والأسس التى ينهجهـا المبتـدئ وفق نظام يحدده الشـيخ المعيـن ، ولا شـك أن هـذا العامـل مـا زال قائمـا بصـورة سـيئة مـن خلال المناهج المختلفـة فـى الطـرق الصـوفية وأورادها .

وقد كان من الأوائل من يرى أن المريد يبـدأ بتصـحيح الاعتقـاد فيمـا بينـه وبيـن اللـه تعـالى ويحاول أن يكون اعتقـاده صـاف عـن الظنـون

والشبه خال من الضلالة والبدع صادر عن البراهين والحجج .

ويقبح بالمريد عندهم أن ينتسب إلى مذهب من المذاهب ليس على هذه الطريقة ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى ، وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئا من الأذكار ، بل يجب أن يقدم التجربة له ، فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله في هذه الطريقة من فنون تصريف القضاء ، فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما لا يستقبله من الضرر والذل والفقر والأسقام والآلام ، وأن لا يجنح بقلبه إلى السهولة ، ولا يترخص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات ، ولا يؤثر الدعة ، ولا يستشعر الكسل فإن وقفة المريد شر من فترته (1) .

1- الرسالة القشيرية جـ2 ص 731 .

ومنهم من يضع أسسا معدودة يحتمها على المريد فيذكر أن المريد لا بد له من سبع خصال :

1- الصدق فى الإرادة وعلامته إعداد العدة .

2- ولا بد لـه مـن التسـبب إلـى الطاعـة وعلامة ذلك هجر قرناء السوء

3- ولا بد له مـن المعرفـة بحـال نفسـه وعلامة ذلك استكشاف آفات النفـس .

4- ولا بـد لـه مـن مجالسـة عـالم بـالله وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه .

5- ولا بد له من توبة نصوح فبـذلك يجـد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة ، وعلامة التوبـة قطـع أسـباب الهـوى والزهد فيما كانت النفس راغبة فيـه .

6- ولا بـد لـه مـن طعمـة حلال لا يـذمها العلم وعلامة ذلك الحلال حلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع .

7- ولا بد له من قرين صالح يؤازره على ذلـــك وعلامـــة القـــرين الصـــالح معـاونته على البر والتقـوى وتهيئـه إياه عن الإثم والعــدوان .

فهذه الخصال السبع عنده قوت الإرادة لا قوام لها إلا بها ويستعين على هذه السبع بـأربع هن أساس بنيانه وبها قوة أركانه :

أولها الجوع ثم السهر ثم الصمت ثم الخلوة .

فهذه الأربع سجن النفس وضيقها وضرب النفس وتقييدها بهن
يضعف صفاتها وعليهن تحسن معاملاتها (1) ولا يكاد يخلو كتاب من كتبهم من ذكر ما لطريقة الشيخ فى تأديب المريد وتربيته الروحية .

5- التنبيه على الشطحات التى وقع فيها أدعياء التصوف .

حفاظا على طريقة الصوفية فإن كثيرا من المشايخ ما برحوا يردون أغاليط المنتسبين إليهم أو من ضل منهم عن طريقة أهل السنة والجماعة ويتجلى هذا فى كتاب اللمع لأبى نصر السراج الطوسى وما نقله السلمى عنه فى أصول الملامتية وغلطات الصوفية ، فقد نقل أقول المشايخ على وجه التفصيل فى ذكر من غلط من المترسمين بالتصوف ومن أين يقع الغلط ؟ ثم صنف طبقاتهم وتفاوتهم فى الغلط ورده عليهم بأدلة النقل والعقل وأقوال المشايخ ، ولا تخلوا ردودهم أيضا من وجود أغاليط ملحوظة (2) .

1- قوت القلوب ص 94 .

2- انظـر اللمـع ص 516 ومـا بعـدها ، وانظـر أصـول الملامتية وغلطات الصوفية تحقيق الدكتور عبد الفتـاح الفاوى ص140 وما بعدها .

الفصل الثانى
دراسة فى مفهوم الحرية

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :

الحرية لغة وشرعا .

المبحث الثـانى :

الحرية فـى تاريـخ الفكرالإسلامى .

المبحث الثالث :

الحرية ومنهج الحياة الإسلامية .

*** المبحث الأول ***

الحـــرية لغـــــة وشـــــرعا

تنبئ هذه الكلمة بتصـاريفها فـى اللسـان العربـى عـن معـانى كـثيرة ترجـع إلـى معنـى

الخلوص والتحرر مـن القيـود وعـدم الإكـراه أو الضغط على إرادة الإنسان .

يقول الراغب الأصفهانى : (حررت القوم إذا أطلقتهم وأعتقتهم عن أسر الحبـس ، والتحـرر جعل الإنسان حرا والحر خلاف العبد) (1) .

قال تعالى : **{ ومن قتـل مؤمنـا خطـأ فتحرير رقبة مؤمنة }** (2) .

والرقبـة اسم للعضو المعروف جعــل فـى التعارف علما على المملوك إذ أنه مقيد بـإدارة سيــده وعتـق الرقبـة إخراجهــا للحريـة ورفـع القيود عنهـا (3) .

وقد جاء الإسلام فى وقت انتشر فيه الـرق فرغب فى الحرية والعتق صونا لآدمية الإنسـان وتحريرا لإرادته التى منحه الله إياها .

قال الإمام البغوى فى قوله تعالى :**{ فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبــة فــك رقبة }** (4) .

1- المفردات للراغب الأصفهانى تحقيـق محمـد السـيد كيلانى طبعة الحلبى ص11.

2- النساء / 29.

3- السابق ص 201 .

4- البلد 12:11 .

قولــه : **{ فلا اقتحــم العقبة }** يعنى لـم يقتحــم العقبـة فـى الـدنيا أى لــم يتحمـل

الأمـــر العظيـــم فـى طاعـة اللـه ، ثـم فسـر اقتحام العقبة بفك الرقاب ومنحهـا الحرية (1) .

وفى الحث على حرية الإرادة والتـرغيب فى العتـق يقول رســول اللــه صلــى اللــه عليـه وسلـم :

(أيما رجل مسلم أعتق رجلا مسلما ، فإن الله عز وجل جاعل وقاء كل عظـم من عظامه عظما من عظام محرره مـن النار ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امـرأة مسلمة فإن اللـه جاعـل قـاء كـل عظـم من عظامها عظما مـن عظـام محررهـا من النار يوم القيامة) (2) .

فالمعنى السائد للحرية بين العرب ما يقابل الرق والعبودية .

وهنـاك بعـض المعـانى الـتى تقابـل معنـى الحرية وتحقيق الرغبة اسـتخدمت فـى الشـرع منها :

1- الإكـراه : ويعنـى سـلب الإرادة وتحقيـق الرغبة ولذلك اشترط الفقهاء

1- شرح السنه للبغوى تحقيق زهير الشاويش وشـعيب الأرناؤوط ، طبعة المكتب الإسلامى حـ 9 ص 251 .

2- أخرجه أبو داود فى سننه فـى كتـاب العتـق بـاب أى الرقـاب أفضـل رقـم الحـديث (3965) والنسـائى فـى

كتاب الجهاد ، باب ثواب من رمى فى سبيل اللـه برقـم (3144) وابن ماجه فى كتاب الجهاد ، باب الرمـى فـى سبيل الله برقم (2812) .

أن يكون العاقد فى البيع حرا مختـارا فى بيع متاعه ، فإذا أكره على بيع ماله بغيـر حـق فـإن البيــع لا ينعقـــد لقولـــه تعـالى : **{ إلا أن تكــون تجــارة عــن تــراض منكــم }** (1) ولقوله صلى اللـه عليـه وسـلم : **(رفـع عـن أمتى الخطـأ والنسـيان ومـا اسـتكرهوا عليه)** (2) .

فحريـة التصـرف والاختيـار مـن الأمـور الأساسـية فـى الـبيع والشـراء والرضـى فـى الإنسان يعنى علامة الكمال فى تحقيـق حريتـه ومن ثم فلا بد من القبول والإيجاب فى العقـود وفـى الحـديث : **(البيعـان بالخيـار مـا لـم يفترقا أو يقول أحدهما لصاحبه اختر)** (3) .

1- النساء / 92 . 2- انظر معرفة السنن والآثار عـن الإمـام الشـافعى تصـنيف الـبيهقى ، طبعـة دار الكتـب العلمية حـ 7ص 326 ، والمغنى بالشرح الكبير لموفق الدين بن قدامه طبعة دار الكتاب العربى حـ 4 ص 3 ، والحـديث أخرجـه ابـن مـاجه فـى سـننه كتـاب الطلاق حديث رقم (16) والبيهقى فـى سننـــه حـ 10 ص 60 والحاكم فــى المستدرك حـ 2 ص 98 وابـن عـدى فـى الكامل حـ 2 ص 758 والخطيب البغدادى فــى التاريـخ حـ 7 ص 377 .

3- أخرجه البخارى فى كتاب البيوع ، باب كم يجوز الخيار حـ 3 ص 83 ومسلم فى كتاب البيوع ، باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين حديث رقم (1531) وأبو داود فى سننه كتاب البيوع والإجارات ، باب فى خيار المتبايعين حديث رقم (3454) والنسائى فى البيوع باب وجوب الخيار للمتابعين حديث رقم (4470) والترمذى فى البيوع حديث (1254) وأخرجه ابن ماجه فى كتاب التجارات باب البيعان بالخيار مالم يفترقا حديث رقم (2181) .

2- الحجر : وهو المنع والتضييق على المديون أو السفيه والحد من حرية التصرف فيما يملك ، قال الإمام الشافعى رحمه الله : الحجر ثابت على اليتامى حتى يجمعوا بين خصلتين :

البلوغ والرشد لقوله تعالى :**{ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم }** (1) ويختبر اليتيم فإذا أحسن التصرف فى ماله وأصلحه رفع عنه الحجر (2) .

3- وفى معنى الإكراه والحجر الغصب : وهو الاستيلاء على حقوق الغير قهرا وهو نوع من السلب لحرية الإنسان وآدميته ولذلك فإن الشرع حرمه ، قال تعالى : **{ يأيها الذين آمنو لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم }** (3) .

وفى الحـديث : **(إن دماءكم وأمـوالكم حرام كحرمة يـومكم هـذا فـى شـهركم هذا فى بلدكم هذا)** (4) .

1- النساء / 6 . 2- الأم للإمام للشافعى حـ 3 ص 215 ومعرفـة السـنن والآثـار حـ 4 ص 457 .
3- النساء / 29 .
4- أخرجه مسلم فى كتاب الحج ، باب حجة النبى صلى اللـه عليـه وسـلم حـديث رقـم (1218) وأبـو داود فـى كتاب المناسك ، باب صفة حجة النبى صـلى اللـه عليـه وسلم برقم (1905) والنسائى فـى كتـاب الحـج ، بـاب الجمع بين الظهر والعصـر بعرفـه برقـم (2713) وابـن ماجه فى كتاب المناسك ، باب حجـة النـبى صـلى اللـه عليه وسلم برقم (3074) .

ويقسم ابن منظور الحرية إلى ضربين :

الضرب الأول : من لم يجر عليـه حكـم الشئ كقوله تعالى : **{ يـا أيها الذين آمنـوا كتب عليكم القصاص فـى القتلـى الحـر بالحـــر والعبـد بالعبد }** (1) .

الضرب الثانى : من لم تتملكه الصفات الذميمة من الحـرص والشـره علـى المقتنيـات الدنيوية ، وإلى العبودية التى تضـاد ذلـك أشـار النبى صلى الله عليـه وسـلم بقـوله : **(تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعـس عبـد الخميصة تعس عبد الخميلة)** (2) .

وعلـى الضـرب الثـانى بنـى الصـوفية اصطلاحهـم فى إطلاق اسم الحريـة علـى مـن خلع عن نفسه أمارات الشهوة ومزق سـلطانها بسيوف المخالفة كل ممــزق (3) .

ومـن ثـم فالحريـة تقابـل العبوديـة عنـد الصوفية بناء على المعنى اللغوى

1- البقرة / 178 .

2- جزء من حديث أبى هريرة رضى اللـه عنـه ، أخرجـه البخارى فى كتاب الجهاد باب الحراسة فى الغـزو فـى سبيل الله برقم (1887) وأخرجه مسلم فى كتاب الـبر والصلة ، باب فضل الضعفاء والخـاملين برقـم (2622) وانظر لسان العـرب لابـن منظـور طبعـة دار المعـارف القاهرة حـ 2 ص 829 .

3- اللمع للسراج الطوسى ص 450 وانظر الحرية فـى الإسلام تأليف محمد الخضر حسين طبعة دار الاعتصـام القاهرة سنة 1982 ص 15 .

القيود وأوصافها ، إذ الحرية تعنى التخلص من القيود التى تحد من حركة الإنسان فـى أقـواله وأفعاله فـى تناسب مطرد بحيـث تظهـر نسـبة الحرية فى الإنسـان إذا حــددت نسبــة القيـود فيه ، ويقسم الــراغب الأصـفهانى هـذه القيـود على أربعـة أضــرب فى معنى العبودية :

[1- عبد بحكم الشـرع وهـو الإنسـان الرقيـق الذى يصح بيعه وابتياعه نحو قوله تعالى : **{ العبــد بالعبــد }** (1) وقــوله تعــالى :

{ وعبدا مملوكا لا يقدر على شئ } (2) .

[2- عبد بالإيجاد وطبيعة الخلقة وذلك ليس إلا لله وأياه قصد بقوله تعالى : **{ إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا }** (3) .

[3- عبد بالعبادة والخدمة فى تطبيق شرع الله والالتزام بهديه وهو المقصود بقوله تعالى **{ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان }** (4) وبقوله : **{ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا }** (5) فكل هذه المعانى تدل على التزامهم بمنهج الله وشرعه .

[4- عبد للدنيا وأعراضها وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها ، وإياه ـــــــــــــــــــــ

1- البقرة / 178 .
2- النحل / 75 . 3- مريم / 93 .
4- الحجر / 42 . 5- الفرقان / 63 .

قصد النبى بقوله فى الحديث السابق : **(تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم)** (1) .

- **والحرية فى ارتباطها بمعنى العبادة على ضربين :**

ا ـ حرية اختيار لفعل دون آخر وهى مجال الإرادة البشرية والناس بهذا الاعتبار كلهم

عبيـد للـه إذ أنهـم خلقـوا خاضـعين لهـذه الفطرة ، ومن هذا المعنى قـوله صـلى اللـه عليه وسلم عن رب العزة : **(ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى)** (2) .

ب ــ حرية تحرر من الأفعال المذمومة بوصـف الشـرع إلـى الأفعـال المحمـودة وعلـى هـذا الاعتبار يصح أن يقال : **ليـس كـل إنسـان عبدا لله أو مسلمـا** (3) .

وفى المعنى الأول اتسع المجال للبحث بيـن الفلاسـفة والمتكلميـن فـى إثبـات الحريـة الإنسانية أونفيها عبر التاريـخ البشـرى ، **وفـى المعنى الثانى** كانت وقفة أوئل الصوفية فى إخراج مصطلح جديد لمعنى الحرية .

1- المفـردات للراغـب الأصـفهانى ص 319 بتصـرف والحديث تقدم تخريجه ص 22 .

2- جزء من حـديث أبـى ذر الغفـارى رضـى اللـه عنـه ، أخرجه مسلم فـى كتـاب الـبر والصلـة برقـم (2577) وأخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة برقم (2495) وأخرجه عبد الرزاق فى مصـنفه برقـم (2072) و ابـن حبان فى صحيحه ، انظر الإحسان فـى تقريـب صـحيح ابن حبان حديث رقم (619) .

3- المفردات بتصرف ص 318 .

*** المبحث الثـانى ***

الحرية فى تاريخ الفكر الإسلامى

تعتبر مسألة القدر وعلاقته بالحرية الإنسانية من الموضوعات الهامة التى شاع الجدل حولها قديما وحديثا لدى الفرق والطوائف الإسلامية المختلفة فبعد ظهور هذه الفرق أضحت هذه المسألة حجر الزاوية فى فكر كل فرقة وعقيدتها إذ أنها تعكس أثرا واضحا على منهج التفكير فى الحياة .

وقد ظهرت وجهات نظر متتعددة ومختلفة وأدلى كل منهم بدلوه إيزاء هذه المسألة وقد كان السؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح ويمثل جوهر الموضوع لدى كل فرد هو : **إذا كان قدر الله شاملا لكل شئ وقضاؤه نافذا لا محالة فلم يحاسب الإنسان على أفعاله وهى مقدرة ومسجلة قبل أن يفعلها ؟**

* أولا : مذهب الجبرية : ويذكر القرآن منطق المشركين المغالطين فى محاولتهم التنصل من المسؤلية المتعلقة بالاختيار الحر وتجاهلهم للإرادة الإنسانية وفعلها مستندين إلى الرجوع بكل شئ وكل حادث وكل فعل إلى مشيئة الله كعلة أولى ووحيدة ومباشرة لشركهم وكفرهم .

قال تعالى فى شأنهم : **{ سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا**

ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم
حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم الله فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن إن أنتم إلا تخرصون } (1) .
{ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون } (2) .

والملاحظ فى رد الله سبحانه وتعالى على قول المشركين الذين يحتجون بالجبر أنه يصفهم بالجهل والكذب ، لأن إفراد الله بالخلق والفاعلية لا يتعارض ولا يتنافى مع إثبات الإرادة الإنسانية وفاعليتها باعتبارها إرادة مختارة ، حيث أن هذه الإرادة ومدى فاعليتها وحدود عملها ومجال اختيارها كل ذلك بمشيئة الله وإذنه وقدره ، وحيث أن الله هو الذى أضلهم ولكن بناء على اختيارهم للضلال وإيثارهم له على ضده ولذلك قال فى الرد عليهم وعلى المنكرين للحرية والاختيار :
{ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين } (3) ومعنى أن لله الحجة البالغة أن الناس لن يستطيعوا يوم القيامة الاحتجاج بالجبر (4)

والقول بالجبر عند المشركين قديم كما ورد فى القرآن الكريم إلا أنه ـــــــــــــــــــــــ

1- الأنعام / 148 . 2- الزخرف /20 .
3- الأنعام / 149 .
4- زاد المسير فى علم التفسير لأبى الفرج جمال الدين ابن الجوزى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عبد الله ، طبعة دار الفكر سنة 1987م حـ 3 ص 99 .

نشأ على المستوى الفكرى أو فى مجال علم الكلام مرتبطا بنشأة التأويل العقلى فى المتشابه من آيات القرآن وأحاديث السنة ، فالمؤسس الأول للجبرية على المستوى الفلسفى هو الجهم بن صفوان (1) .

ويذكر الدكتور على سامى النشار أن طائفة المجبرة نشأت فى الأصل على يد الجعد بن درهم ثم الجهم بن صفوان أثناء حكم بنى أمية (2) حيث اتخذوا من القول بالجبر منطلقا عقيديا يبررون به أعمالهم السياسية (3) .

ويقسم الشهرستانى الجبرية إلى نوعين : **الجبرية الخالصة** وهى التى لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا ، **الجبرية المتوسطة** وهى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة فى الفعل (4) .

والجهمية من الصنف الأول فالإنسان عندهم معدوم الفعل والحرية

1- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده حـ 3 ص 33 .

2- انظر فى ذلك نشأة الفكر الإسلامى للدكتور على سامى النشار ، طبعة القاهرة سنة 1969 حـ 1 ص 329 .

3- المحيط بالتكاليف للقاضى عبد الجبار تحقيق عمر عزمى ، ص 422 والمنية والأمل لأحمد بن المرتضى ، تحقيق نوما آرنولد طبعة حيدر آباد سنة 1902م ص 30 .

4- الملل والنحل للشهرستانى تحقيق محمد السيد الكيلانى طبعة القاهرة سنة 1961م حـ 1 ص 87 .

ويخلق الله فيه الأفعال كما يخلقها فى سائر الجمادات ونسبة الأفعال إليه على المجاز كما يقال : زالت الشمس ودارت الرحى وأثمرت الشجرة (1) .

* ثانيا : مذهب القدرية :

وفى مقابل مذهب الجبرية يذكر القرآن الكريم طائفة ظنت أن القوانين الطبيعية التى أوجدها الله فى الكون ورتب نظام الحياة الدنيا عليها تعلو على القدرة الإلهية ، فنسبت إليها الفاعلية أصالة دون الله سبحانه وتعالى إذ يقول فى شأنهم :

{ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون } (2) .

فهؤلاء نسبوا الفاعلية للأشياء والأحياء على وجه الحقيقة وليس لله عز وجل ، فنتيجة

الألفـة والتكـرار للقـوانين والسـنن الطبيعيـة وتتـابع الأسـباب والعلـل وظهـور نتائجهـا علـى الدوام بحركات رتيبة منتظمة أوحت إلى هؤلاء أن فى الطبيعة الـتى يحيـا فيهـا الإنسـان قـوة فاعلة من دون الله ومن ثم ظهر اتجـاه ينـادى أنه لا قدر والأمر أنف .

ويكاد يجمع مؤرخـو الفــرق أن معبـدا الجهنـى (توفى بعد 80 هـ)

1- الفـرق بيـن الفـرق للبغـدادى ، طبعـة دار الكتـب العلمية بيروت لبنان ص 211 .

2- الجاثية / 24 .

هو أول من قـال مـن المسـلمين بنفـى القـدر والفاعليـة الإلهيـة وكـان ذلـك فـى آخـر أيـام الصحابة (1) .

وكان لهؤلاء أثر كبير فـى ظهـور مـذهب المعتزلـة القدريـة بالصـورة المسـتقلة وفـى ثــوبهم المتميــز بالأصــول الخمســة ولــذلك صنفوهم على رأس طبقاتهم من أهل الاعتزال (2) .

وقد كانت مسألة خلـق أفعـال العبـاد مـن المسـائل العظـام فـى التاريـخ الفكـرى للأمـة الإســلامية ، فالمعتزلــة اتفقــوا علــى أن الاستطاعة صفة جوهرية للإنسان وأنها مصـدر أول لأفعـاله تحـدث بهـا الأفعـال دون تـدخل للقدرة الإلهية خلقا أو تسيرا ، ورفـض أكـثرهم

القول بأن الله قوى أحدا على الكفر وأقدره باعتباره خالقا لكل شئ مستدلين بقوله تعالى :

{ وما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك } (3) .

1- انظر ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبى حـ 2 ص 141 وشفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، طبعة دار الفكر القاهرة سنة 1978م ص 139 .

2- نشأة الفكر الإسلامى د. على سامى النشار حـ 1 ص 313 .

3- النساء / 97 وانظرالمنية والأمل لابن المرتضى ص 15 ومقالات الإسلاميين حـ 1 ص 81 والفرق بين الفرق ص 153 ، والملل والنحل حـ1 ص 66 .

ويجمع المعتزلة إلا قليلا منهم على أن الاستطاعة البشرية محدثة للفعل وليست مكتسبة له (1) .

ثالثا : المذهب السلفى :

وقد دارت الدائرة بين الجبرية والقدرية كعقيدتين متقابلتين ومنحرفتين فى مسألة القدر والحرية من ناحية ، وبين السلف الصالح من ناحية أخرى ، حيث يؤكد السلف أن القرآن الكريم يثبت فى وضوح وجلاء بالنصوص العديدة وجود وجهين لأفعال البشر :

الأول : هو كون الفعل مخلوقا للـه ومقـدرا بمشيئته وواقعا ككل شئ فى الكـون بفـاعليته تعالـى كقوله **: { ألا له الخلق والأمر }** (2) .

{ الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل } (3) .

الوجه الثانى : وهو كون هذا الفعـل فـى نفس الوقت مختارا للعبد ومكتسبا باســطاعته ومفعولا بفاعليته منسوبا إليه بهذا الاعتبار .

فقال تعالى : { لمن شاء منكم أن يسـتقيم } (4) وقــال : { ولله علـى النـاس حـج البيــت مــن اسـتطاع إليـه سبيلا } (5) .

1- مقالات الإسلاميين حـ 1 ص 81 .
2- الأعراف / 54 .
3- الزمر / 62 .
4- التكوير /28 .
5- آل عمران / 97 .

وقــال : **{ لا يكلـف اللـه نفسـا إلا وسـعها لهـا مـا كسـبت وعليهـا مـا اكتسبت }** (1) .

ففرقـوا بيـن أمـر اللـه الكـونى المتعلـق بالربوبية وأمره التشريعى المتعلق بالعبوديــة ، ومــن ثــم فالفعــل البشــرى إذا وقــع باختيــار

الإنسان ونيته مخالفا للشرع أو لأمر الله التشريعى كان معصية وشرا .

ووجه الشر هنا ليس منسوبا لله إلا أن الله هو خالق الفعل سواء كان خيرا أو شرا ، فالله سبحانه وتعالى هو الخالق لكل شئ حتى معاصى العباد وهو الذى أقدرهم على فعلها لأنه تعالى شاء أن يبتليهم **فقال : { إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا } (2)**

وقال سبحانه وتعالى : **{ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور }** (3) .

ومن ثم تصبح الاستطاعة البشرية والأشياء الطبيعية وأفعالهما المخلوقة لله كلها أفعال وتأثيرات احتمالية يتساوى بها جميعا وقوع الشر والخير ، أما حركة الأفلاك والنجوم والشمس والقمر وسائر

1- البقرة / 286 .
2- الإنسان / 2 .
3- الملك / 1 ، 2 .

الأجرام السماوية فلها حركة اضطرارية جبرية كما أرادها الله لها بالأمر الكونى ، فليس أمامها إلا فعل واحد وحركة واحدة مطردة ينبئ ماضيها عن مستقبلها بدقة فائقة شأن الملائكة المكرمين الذين قال الله فيهم : **{ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون }** (1) .

فأفعالهم ذات اتجاه واحد ولا يوجد حيالها سوى احتمال واحد بخلاف الانسان فهو فى كل موقف يبتلى فيه يجد أمامه احتمالين عليه أن يختار ويفعل واحدا منهما ولا يمكن الجمع بينهما ، على ذلك فالطريق الذى سلكه السلف الصالح والذى يعتمد فى جوهره على كتاب الله وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد أمرا وسطا للجمع بين آراء الجبرية والقدرية (2) .

ولئن كان القدرية قد قالوا **ليس فى الإمكان أبدع مما كان** تنزيها لله فى فعله من أن يفعل ما هو قبيح أو ناقص أو معيب أو شر ، بل ورغبة منهم فى القول بأن الله سبحانه وتعالى بوصفه الموجود الكامل المطلق الواحد الأحد فى كماله لا يخلق أو يفعل إلا مخلوقا تاما أو فعلا حسنا

1- التحريم / 6 .

2- انظر فى ذلك شفاء العليل ص 280 وما بعدها ، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم مكتبة المتنبى القاهرة حـ 1 ص 226 ، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ص 219 ، قوت القلوب لأبى طالب المكى حـ 2 ص 17 .

وخيرا اعتقادا منهم فى قوله تعالى : **{ الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون }** (1) .

وقوله : { فتبارك الله أحسن الخالقين } (2) .

إلا أنهم تغافلوا عن لازم قولهم وهو نفى المشيئة المطلقة عن الله لأنه مادام لا يخلق ولا يفعل إلا الأصلح ، فهو لا يختار بين ممكنات باعتبار أن الأصلح دائما واحد ، كما أنه يضيق مجال الفاعلية الإلهية من حيث يجعل خلق العالم بهذه الكيفية التى هو عليها واجبا على الله وحتما عليه فى فعله كما أنه يحد من القدرة حيث يجعل خلق غير العالم محال عليه كما يجعل فعل ما لا يحدث محال على قدرته كذلك ، كل ذلك نتيجة لمذهب المعتزلة فى الصلاح والأصلح .

وفى مقابل مذهب المعتزلة القدريـة رفـع أصحاب الجبر شعارهم فقالــوا : ما شـاء اللـه كان وما لم يشأ لم يكن إطلاقا للمشيئة الإلهية وتحقيقا للقدرة ووصـفا للفاعليـة الإلهيــة بمـا يليق بها ، وهذا وإن كان ـــــــــــــــــــــــ

1- السجدة / 7 : 9 .

2- المؤمنون / 14 .

حقا إلا أن الاكتفاء به يلـزم أصـحابه بنسـبة مـا يقع في العـالم مـن شـرور وقبائـح للـه ، وقـد وجدنا أن ذلك واقـع مـن النـاس وبفعلهـم وإن كان بمشيئة الله وقدره (1) .

والحقيقة التى أثبتها السلف الصالح حيـال هذا الأمر أنه ما شاء الله كان وما لـم يشـأ لـم يكـن وهـو مـا يحـدث بـالأمر الكـونى وواقـع الربوبية وأنه ليس فى الإمكان أبـدع ممـا كـان لتحقيــق الوضــع الأمثــل لابتلاء الإنســان فــى الحياة الدنيا وتكليفه بالأمر الشرعى مـن قبـل الله لتحقيق العبودية كمـا قال سبحانه :

{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } (2) .

فالشـعاران اللــذان رفعهمـا الفريقـان صحيحان بنص القرآن وليسا متعارضين بـل إن اللبــس والغمــوض والاضــطراب فــى هــذه الحقيقة عند كل طائفة يكمن فى أن كلا منهما يتمسك بشعاره ويرفض الآخر .

وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم عندما سأله سراقة بن

1- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص 228 وما بعدها مختصرا وانظر اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع لأبى الحسن الأشعرى ص 115، وانظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، دار الجبل بيروت لبنان حـ 3 ص201 وما بعدها ، تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد أبو زهرة طبعة دار الفكر العربى ص121 .

2- الذاريات / 56 .

مالك بن جشعم فقال : يارسول الله أنعمل اليوم فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أو فيما يستقبل ؟ فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟
قال : ففيم العمل ؟
قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم :
{ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى } (1) .

فالمتأمل فيه يجد الطريقين المتقابلين فى مسألة القدر والحرية ويجد المخرج من هذا

التناقض ، فالله سبحانه وتعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وفى ذات الوقت جعل الإنسان حرا مختارا بالقدر الذى يدينه ويحمله المسئولية عن أفعاله الخلقية كل ذلك فى نسق فكرى واحد نزل به الوحى ، تظهر فيه الغاية من خلق الحياة الدنيا والآخرة قال تعالى : **{ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين }** (1) .

وقد نتج عن التفاوت فى علاج هذه القضية كم كبير من التراث الفكرى الإسلامى والأقرب فيهم إلى الحق هو الأقرب فى التمسك بمجموع الأدلة فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

1- الليل / 5 : 10 .

2- أخرجه البخارى فى كتاب القدر ، باب جف القلم على علم الله برقم (6596) ومسلم فى كتاب القدر ، باب كيفية الخلق برقم (2647) وأخرجه أحمد حـ 1ص 82 ، حـ4ص431 وابن حبان فى التقريب حـ 2 ص 45 برقم (334) والترمذى فى القدر ، باب ما جاء فى الشقاء والسعادة برقم (2136) .

ولقد كان لكثير من أوائل الصوفية فى هذه المسألة وقفة سلفية تآزرت مع الفقهاء والمحدثين فى وقوفهم أمام المخالفين لكتاب الله سوف تتضح بإذن الله من خلال هذا البحث ، وقد يكون الشائع عن أوائل الصوفية أنهم يرغبون فى إخراج أنفسهم من عواق الحياة بهجرها والزهد فيها وايثارهم للخلوة والبرارى والصحارى عن التفاعل معها والخوض فيها كما هو الحال فى صوفية اليوم ، إلا أن أوائل الصوفية على الرغم من شطحاتهم ومخالفاتهم لهم جانب لا ينكر فى خدمة العقيدة السلفية ، فلهم إبداعات قيمة فى عرض مسألة القدر وعلاقته بالحرية الإنسانية تسفر عن فهم دقيق لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

1- هود / 118 ، 119 .

*** المبحث الثالث ***

الحرية ومنهج الحياة الإسلامية

إذا كانت الحرية تعنى استقلال الإرادة الإنسانية وحريتها فى اختيار أفعالها ، فإن الوجه المقابل لاستكمالها أن يعين للإنسان حد لا يتجاوزه وأن توضع نظم تمنع التعدى على

حريات الآخرين فالحرية وسيلة وليست غاية إذ الغايـة تكمـن فـى تحقيـق الكمـال الإنسـانى المتمثل فى عبوديته للـه سـبحانه وتعـالى كمـا قـال جـل ذكـره : **{ ومـا خلقـت الجـن والإنـس إلا ليعبدون }** (1) .

ولقد حوى دين الإسلام مـن نظـم الحيـاة لجميـع أفرادهـا كـل مـا يحتـاجه الإنسـان مـن تشريع فى علاقته مع ربه ومع ملائكتـه وأنبيـائه ومـع أفـراد نـوعه مـن بنـى البشـر ، فـبين لنـا القرآن الكريم وفصلت لنا السنة النبوية كل مـا يلزم الإنسان فى حياته اليومية من نظم تحقـق الكمال الإنسانى فـى اختيـاره وحريتـه ، وذلـك فى مقابل النظـم والتشـريعات المكتسـبة مـن التجربـة واستحسـان العقـول فـى الفلسـفات الأخرى .

* الحرية فى المجال السياسى :

ففى تنظيم العلاقة بين الراعى والرعية نجد أفكارا شتى عنـد السياسـيين كـل يـدلي بـدلوه ليحقق كمال الحرية من وجهة نظـره وأقربهـم

1- الذاريات / 56 .

إلى الحق أقربهـم إلـى النظـم الإسـلامية الـتى وضعها الله سبحانه وتعالى .

فالمبادئ الأساسية الـتى كفلهـا الإسـلام فـى ذلك :

1- الحرية السياسية لكل أفراد المجتمع أو حق الأمة فى اختيار الحاكم .
2- حـق الأمـة فـى مراقبتـه ومحاسـبته علـى أعماله .
3- مبدأ الشورى .

أما طريقة الاختيار للحاكم ، فإن الذى اتبعه الصحابة هو أن يبايع أهل الحـل والعقـد الإمـام أو الخليفة الذى تم الاتفاق عليـه ، وأهـل الحـل والعقـد هـم **أئمـة المسـلمين وفقهـاؤهم ورؤساء عشائرهم وأمراء أجنـادهم وذو الشوكة والمكانة والرأى فيهم** (1) .

والبيعة **(هى العهد على الطاعة فقد كان المبايع يعاهد أميره على أنه يسـلم له النظر فى أموره وأمور المسلمين)** (2) .

وقد تولى الخلفاء الراشدون ـ وعهدهم هـو العهد الذى يمثل مبادئ القرآن أصدق تمثيـل ـــ بطريق البيعة من أهل الحل والعقد .

وقد قرر ابن خلدون حق الإمام فـى تعيـن خلفـــــه علـــــى المســـــلمين مســـــتندا

1- انظر غياث الأمم فى التياث الظلـم لإمـام الحرميـن أبى المعالى الجوينى تحقيق ودراسة الدكتور مصطفى حلمى والدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد ص 46 طبعة دار الدعوة الإسكندرية مصر سنة 1979 .

2- المقدمة لابن خلدون تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى حـ 2 ص719 طبعة لجنة البيان العربى .

بتولية عمر بن الخطاب ، ولكن كلامه فيه نظر ، إذ أنه أغفل التفرقة بين الترشيح والتعيين حيث رشح أبو بكر عمر ولم يعينه ، وحيث تم تنصيبه ببيعة أهل الحل والعقد بعد وفاة أبو بكر رضى الله عنه (1) .

أما حق الأمة فى محاسبة الحاكم ، فقد نص على ذلك أبو بكر وعمر وسائر الخلفاء فى خطبتهم الأولى بعد مبايعة الناس لهم بالخلافة كما أن ما حدث من عامة المسلمين لعثمان بن عفان خير دليل على ذلك ، وإن كانوا قد جاروا عليه باستخدامهم هذا الحق فى غير موضعه ودون مبرر معقول ومقبول .

والحق الثالث للناس على الراعى حق الشورى لقوله تعالى : **{ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم }** (2) فبين أن تلك صفة لازمة للمجتمع المؤمن كالصلاة وسائر الطاعات ومن ثم أمر نبيه أن يعامل المسلمين فى أمورهم بهذا المبدأ : **{ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر }** (3) .

هذه الحقوق الثلاثة للرعية على الراعى مقابل حقه عليهم فى السمع والطاعة ما دام لا يأمر بمعصية تحقق المساواة التامة بين الناس من

جهة وبينهم وبين الفئة الحاكمة من جهة أخـرى ، وأساس هذه المساواة هى ـــــــــــــــــــــ

1- الحرية فى الإسلام للدكتور على عبـد الواحـد وافـى ص98 .

2- الشورى / 38 .

3- آل عمران : 159 .

حياتهم جميعا وفق شريعة الله تحقيقا للعبـوديه ، و ذلك لأن المساواة الحقة بين أفـراد مجتمـع ما فى القيمة الإنسـانية لا تكـون إلا تحـت لـواء شرع ونظام ومنهـج حكيـم منـزل عليهـم مـن ربهم (1) .

* الحرية الدينية :

وقد راعى النظام الإلهى فـى فطـرة النـاس الحرية التامة لكل فرد م ن الرعيـة فـى اختيـار دينه ذلك لأن الحرية هى الوسيلة لتحقيق كيان الفرد فى نفسـه وفـى مجتمعـه ، ومـن ثـم فلا إنسـانية بـدون حريـة ولـذلك فـإن التشـريع القرآنى يكفل للفـرد ضـمانات صـلبة وراسـخة لحريته حيال المجتمـع ، فجعـل لكـل فـرد حـق الاختيـار فـى كـل أمـور حيـاته وآخرتـه هزيلهـا وخطيرها مادام هذا الاختيـار لا يتضـمن اعتـداء ظالما على غيره ومن ثم فحرية اختيار الإيمان بـالله أو الشـرك بـه حـق لكـل إنسـان يتحمـل نتائجه : **{ وقل الحق من ربكم فمن شـاء فليـؤمن ومـن شـاء فليكفـر إنـا أعتـدنا**

للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها } (1) .

1- السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية فى الشؤن الدستورية والخارجية والمالية للشيخ عبد الوهاب خلاف ص25 وما بعدها بتصرف ، طبعة دار الأنصار القاهرة سنة 1977 م .

2- الكهف : 29 .

وذلك لأنه مخلوق حر والحرية مكون أساسى فى طبيعته التى خلقه الله بها فما دام ذلك حقه الذى أعطاه الله له ، فليس من حق أحد أو أى سلطة أن تسلبه منه حتى لو كان ذلك لصالح الإيمان والإسلام .

فلو أكره حاكم أحدا من رعيته على الإسلام لكان ذلك اعتداء منه على حق المكره الذى كفله الله له ، ورفض منه لارادة الله ومشيئته فى خلقه وذلك واضح صريح فى قوله تعالى لرسوله مبينا أنه ليس من حقه أن يكره أحدا على الإيمان : **{ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين }** (1) .

فما دام الله قد شاء أن يكون الناس أحرارا مختارين بين الإيمان والكفر فمن يكره إنسانا على الإيمان وهو مصر على الكفر أو الشرك ،

فقد خالف مشيئة الله واعتـدى علـى حـق هـذا الإنسان الذى وهبه الله له .

أما ماورد عن رسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم حيث قال :

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى دمـاءه ومـاله) (2) فـذلك لا يعنـى إكـراه الناس على الإيمان

1- يونس 99 . 2- حديث متـواتر رواه البخـارى فـى كتاب الزكاه ، باب وجوب الزكاة برقم (1399) ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حـتى يقولـوا لاإله إلا الله برقم (21) وأبوداود فى كتاب الزكاة برقم (1556) والترمـذى فـى كتـاب الإيمـان برقـم (2609) والنسائى فى كتاب المحاربة برقم (3983) وابن مـاجه فى كتاب السنة والفتن برقم (3927) .

بالقتال ، ولكن المقصود بالناس هنا مـن وقـف فـى طريـق الـدعوة يتصـدى لهـا مـن أصـحاب السـلطان الجـائرين فـى الأرض المكرهيـن للناس على الضلال والشرك ، الحاكمين بينهـم بشـريعتهم وأهـوائهم ، ولـذلك فـإن عمـر بـن الخطاب رضى الله عنه بعد النصر أعطى عهـدا لأهل إيليا بالأمان والحرية التامـة فـى أنفسـهم وأموالهم وكنائسهم وسائر ملتهم ولا يضار أحـد منهم (1) .

وكذلك عهد عمرو بن العاص لأهـل مصـر وجميع من عهد نص على حرية العقيدة وإقامـة الشعائر (2) .

ومن ثم فمهمة الجيوش الإسلامية المجاهدة تتمثـل فـى إزالـة هـذا الحـاجز المـانع حـتى يسـتطيع المسـلمون تبليـغ رسـالة اللـه الـتى كلفهم بتبليغها وحتى تبلغ كلمة الله آذان الأمـم والشعوب وبعد ذلك يكون من حق كل منهم أن يـؤمن أو لايـؤمن ، وذلـك التشـريع السياسـى العام فى حرية العقيـدة ينسـحب علـى تشـريع الحريــة العقيديــة بيــن الزوجيــن ، فلا يســمح الإسلام للمسلم المتزوج باليهودية أو النصرانية أن يجبرها على ترك دينها أو أن يمنعها من آداء شعائرها التعبدية فى كنيستها ، بل تذهب بعض مذاهب الفقه الإسـلامية إلـى وجـوب مصـاحبة الزوج المسلم للزوجية

1-البداية والنهاية حـ 7 ص 65 طبعة دار الفكر العربى سنة 1387هـ .

2- السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية ص36 .

الكتابية إلى كنيستها أو بيعتها للصـلاة إذا أرادت (1) .

ولقد أثار مخالفو الإسلام من مستشرقين وغيرهـم شـبهات حـول انتشـار الإسـلام نتيجـة الفتوحات الإسلامية زاعمين أن من أسـلم مـن مــواطنى البلاد المفتوحــة إنمــا أســلم تحــت

السيف ، ولكن ذلك افتراء مناف للصحة والصواب فلم تكن حقيقة الحروب الإسلامية سوى تحرير للناس من أوضاع ونظم ظالمة غاشمة تستعبد الشعوب للحكام من دون الله .

وأصدق تعبير وأوضحه على هذا المبدأ الهام هو قول ربعى بن عامر لملك الفرس عندما سأله عن سبب غزو المسلمين لبلاده قبل موقعة القادسية قال : **(إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة)** (2) ولن تتحقق الحرية على وجهها الأمثل إلا بهذا التحرير .

* الحرية فى المجال الاقتصادى :

وتعنى حرية الإنسان فى التملك للأرض التى منحه الله إياها واستغلاله لثرواتها ومنتجاتها ، وتعبيد كل ما عليها من نبات وحيوان ومعادن لمعاشه ومتاعه المشروع وهى شعبة أخرى من شعب الحرية

1- الحرية فى الإسلام من سلسلة كتاب اقرأ د . عبد الواحد وافى ص 61.

2- البداية والنهاية حـ 3 ص 123 .

الإنسانية بعد الحرية السياسية والعقيدية ولا تقل خطرا عنهما (1) .

ويقدم الإسلام نظامه الاقتصادى الإسلامى المحكم كمنهج لضمانها لكل فرد فما دام الناس كلهم مستخلفون فى الأرض فقد أطلقت التشريعات الاقتصادية الإسلامية طاقات العمل عند كل الأفراد فى المجتمع للاستغلال والبناء والتعمير والإنتاج وفى شتى ضروب النشاط الاقتصادى .

فأباح الإسلام الملكية الفردية تمشيا مع الفطرة الإنسانية وإطلاقا للطاقات البشرية إلى آخر مدى مقدر لها وجعل هذه الملكية هى الأجر الطبيعى والمكافأة العادلة لمن يعمل ويجتهد لاستخراج الأرزاق للناس من الأرض .

ومن الطبيعى أن تفاوت الناس فى مواهبهم الموروثة التى خلقهم الله بها يستتبع تفاوتا بينهم فى طاقة كل منهم على العمل والإنتاج واستغلال الأرض ومن ثم يستتبع ذلك فروقا بينهم فى ملكياتهم ولا يمنع الإسلام ذلك ، ولكنه يجعله مسموحا بشروط البشرية فوجود أغنياء فى المجتمعات البشرية أمر قد أراده الله وشاءه لابتلاء الناس .

ولكن الذى يحتمه التشريع الاقتصادى الإسلامى حماية للحرية الاقتصادية لأفراد المجتمع هو أن يكون للفقراء والمساكين

واليتامى والعجزة حق فى مـال هـؤلاء الأغنيـاء بقـــدر كـــثرة هـــذا المـــال وتلـــك هـــى

1- الحرية فى الإسلام من سلسلة كتاب اقرأ ص 72 .

الزكاة ، ذلك أن الإسلام فى مقابل إطلاق أيدى الناس أصحاب الطاقـات البنـاءة والعاملـة فـى ثروات الأرض يمتلكون من خيراتها ما يشاؤون وما يستطيعون يجعل لهـؤلاء الـذين لا يملكـون وسـائل الإنتـاج والقـدرات الجسـدية والذهنيـة والعقلية من العجزة واليتامى والمساكين وأبناء السبيل وكل من أقعـدته ظروفـه الجبريـة عـن الكسب يجعل لهم حقا فى مال الأغنياء لأن ما يكسبه المستطيعون نتيجة عملهم واســتغلالهم لثروات البر والبحر إنما هو رزق مقدر من اللـه للجميع .

ويتضح لنا ذلك الأمر بمعرفة مفهوم الملكية فى الإسلام باعتباره الأساس الفلسفى للنظـام الاقتصادى الإسلامى .

وينبثق مفهوم الملكية فى الإسلام من حقيقة كبرى تتمثل فى أن المالك الحقيقى للأرض هو اللــه وأن الملكيــة الموهوبــة للإنســان ليســت ملكية مطلقة دائمـة وحقيقيـة بـل هـى مؤقتـة لعلة تنتهى بالموت أو فناء الدنيا كما قال تعالى : **{ له ملك السمـاوات والأرض ثــم إليــه ترجعــون }** (1) .

وقال سبحانه : **{ ولقد جئتمونا فرادى كمـا خلقنـاكم أول مـرة وتركتـم مـا خولناكم وراء ظهوركم }** (2) .

1- الزمر /44 .
2- الأنعام / 94 .

* الحرية فى المجال الاجتماعى :

أما الحرية الاجتماعية والتى تعنـى كـون المواطنين جميعا سواء فى الحقوق والواجبات بلا تميز طبقى أو تفاوت بينهم من حيث القيمـة الإنسـانية ، فـالقرآن والسـنة يشـملان مـن النصوص العديدة ما يثبت ذلك بوضوح وجلاء .

وتنبثـق فلسـفة النظـام الاجتمـاعى فـى الإسـلام مـن خلال حقيقـة كـبرى يبينهـا قـوله تعـالى : **{ وهـو الـذى جعلكـم خلائـف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجـات ليبلوكم فيما آتكم }** (1) .

فالابتلاء علة وجود التفاوت والدرجات بين الناس فى المجتمع فى شتى المجالات ، وهـذه مشـيئة اللـه سـبحانه وتعـالى حيـث خلقهـم متفاوتين فى المواهب وسعة النفوس والعقول ، ومـا عليـه كـل منهـم مـن الجمـال والصـحة وأحوال البيئـة والظـروف الخاصـة لكـل أسـرة ولكل فرد .

ولكن هذه الحالات الاجتماعية بين الناس ليست سوى حالات مؤقتة ومتنوعة يخلق الله العباد فيها تحقيقا للابتلاء ، وبذلك يوجب الشرع على الخادم حب مخدومه وطاعته وآداء واجبه نحوه باعتبار أن ذلك أمر الله ومشيئته لابتلائه ، كما يوجب فى الوقت عينه حب المخدوم لخادمه

1- الأنعام / 165 .

وحسن المعاملة واحترام آدميته وآداء حقه عليه غير منقوص باعتباره إنسانا مثله بل باعتباره أخا له وباعتبار أنه مبتلى كذلك .

ومن ثم فليس الإسلام طبقات بين الناس بمفهوم الطبقات الاجتماعية وإنما هى درجات ، ويستحيل أن يخلو مجتمع ما من الدرجات التى تعرف فى علم الاجتماع بالسلم الاجتماعى الذى يأخذ الشكل الهرمى .

وتلك الأسس تحقق الوحدة الاجتماعية بين أفراد المجتمع بالحب والإخاء ويصبح كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله :

(ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر و الحمى) (1) .

1- أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، باب رحمة النـاس والبهائم برقم (6011) ومسـلم فـى كتـاب البروالصـلة برقم (2586) .

Cairo Universty
Faculty of Dar El - Ulum
Department of Islamic Philosophy

MS. C. Thesis

The Concept Of Freedom In Mysticism In The Third And Fourth Higrah Centuries

By

Mahmod Abdoh Abd Elrazix Ali

Undar Superisor

Prof. Dr. Abdo El Fattah El Ffawy

Prof. Of Islamic Philosophy

1994/1995